Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 42:3 (2007)

الملامتية في التصوف الإسلامي:
حقيقتهم وأنواعهم وصورتهم عند السلفيين الجدد

مصعب الخير إدريس السيد مصطفى الإدريسي

الحمد لله المتوحّد بجلال ذاته وكمال صفاته، المتقدس في نعوت الجبروت عن النقص وسماته. والصلاة والسلام على نبيّه سيدنا محمد المؤيّد بساطع حججه وواضح بيّناته، وعلى آله عترة النبي وذرياته، والرضا على أصحابه هُداة طريق الحق وحُماته، وعلى سائر الصالحين التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فقد حضرتُ لبعض الشيوخ دروسا تلقى في حدود ضيقة، وكانوا مع سعة علمهم بفنون اللغة وعلوم الشريعة، وما يدركه القريبون منهم من حسن عبادتهم وإخباتهم لربهم، لا يتعرضون للخطابة العامة ولا يشتغلون بالفتوى، ويسيرون في الناس سيرة العوام لا يتميزون عنهم بسمت مخصوص. وسمعت في أول صباي عن أبي وأعمامي ـ رحمهم الله ـ أن درويشا فقيراً كان يحضر إلى ديوان الأسرة في صعيد مصر، وكان إذا سمع القرآن يتلى في مجلس سارع إلى الهرب من المكان، وكان يعتذر عن ذلك إذا سئل بأنه لا يتحمل السماع لأنه يسمع القرآن بكل جوارحه لا بأذنه فقط. ورأيت شاباً في إحدى القرى القريبة من قريتي تبدو عليه سمات التخلف العقلي، والظاهر أنه ليس من أهل التكليف، ومع ذلك كان في الناس من يعدُّه من أهل الولاية؛ فلما توفاه الله ـ تعالى ـ جعلوا قبره ضريحا وأقاموا له مولداً كبيراً بزعم أنه من أهل الولاية الخفيّة.

وكان يقال في هؤلاء وغيرهم: إنهم ملامتية. ولم أكن في ذلك الزمان البعيد أعرف حقيقة أهل الملامة بوضوح، ولا أدرك رتب أنواعهم المختلفة بصورة ظاهرة عند سالكي الطريق بالحق؛ غير أني حفظت من الحديث ما سمعته على ألسنة الشيوخ مما أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

على الله لأبرّه"(1). وما أخرجه الإمام أبو عيسى الترمذي في **جامعه** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة، فإن كان صاحبها سدد وقارب فأرجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روي عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا، إلا من عصمه الله"(2). ومن وجوه بيانه أنه يشير الناس بعضهم لبعض إليه بأصابعهم، فيقولون: هذا فلان العابد أو العالم. ويطرون في مدحه، فإن ذلك بلاء ومحنة له. ومن عصمه الله تعالى فقد حفظه وجعل له ملكة يقتدر بها على قهر نفسه، بحيث لا يلتفت إلى ذلك ولا يستنفره الشيطان بسببه(3)، لكن هذا لم يكن يعني عندي أن كل من هبَّ ودبَّ، ولا كل من ابتدع في الدين أو ابتدع له أو بسببه يمكن أن يعد في الملامتية والصوفية.

ولما انتقلت إلى القاهرة مع بدء الدراسة الجامعية، عرفت أقواما ينكرون التصوف جملة بلا تمييز بين الحق الظاهر والباطل البيِّن، ولا توقف عند النظر فيما يشتبه من أحكام بعض المعاملات والعبارات، وسمعت من ذلك وقرأت ما لم أكن أتصور من قبل أنه يقال ويكتب. ثم درست مادة التصوف في كلية دار العلوم مع الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند في كتابه **قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنَّة**، فعرفت أن في الساحة اتجاها ناقدا معتدلا يقبل ما يثبت في رؤيته أن له أصلا في الكتاب والسنَّة، ويردُّ ما يثبت أنه مخالف لهما أو معارض لما هو معروف عنده من سيرة السلف الصالح. ولئن خالفه الصوفي أو المتصوف في بعض آرائه وأحكامه، فهناك مساحة رحبة للنقاش ورجع النظر ومعارضة الدليل بالدليل، فليس من الصواب ترك الحق لتستر بعض المبطلين به، ولا حمل الباطل عليه لإشاعة قبوله أو السكوت عنه بين الناس.

وليس من باب الاستطراد أن أسجل إعجابي بأستاذنا الدكتور الجليند حينما درَّس لنا في مرحلة تمهيدية للماجستير في مكتبه الخاص بعيداً عن قاعات المحاضرات العامة، فكلّف طلابه أن يقدم كل واحد منهم تقريراً عن كتاب من مكتبة الفلسفة الإسلامية التي تضم مجال التصوف، فكتبت

1- **صحيح مسلم**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٢٨٥٤.

2- **سنن الترمذي**: ٤/ ٦٣٥، حديث رقم ٢٤٥٣. والشرة: الشدة في الأمر والحرص على تمامه.

3- انظر: أبا العلا محمد بن عبد الرحمن المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، دار الكتب العلمية ـ بيروت: ١٢٧/٧.

عن كتاب الحارث بن أسد المحاسبي **الرعاية لحقوق الله**، وكتب أحد زملائي عن كتاب لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني، وحينما شرع ذلك الزميل في تقديم تقريره أخذ في الثناء على الإمام الشعراني قطب زمانه الأوحد، ثم عمد إلى استئذانه في عرض الكتاب وبيان ما فيه. ولقد سمعت صدر خطبة الزميل الذي كان مجلسه عن يميني، ثم أخذني وهم تخيل الأستاذ يلقي عليه مكتبه أو ينفض على رأسه ما بين يديه، وكدت أغادر مجلسي إلى جوار المتحدث نجاة بنفسي؛ لكن الأستاذ كان يسمع في وقاره المعهود ولا يبدو عليه شيء من سمات الدهشة والاستغراب. وحينما سخِرَ أحد الزملاء الحاضرين مما يسمع عنَّفه الأستاذ وتهدده بالفصل والطرد من مجلس الدراسة؛ حتى إذا انتهى المتحدّث من تقريره علّق الأستاذ عليه بما ينبغي في العلم من حيث المنهج والأفكار المطروحة، ثم أتاح لنا مناقشته.

ولقد تابعت دراستي بعد ذلك تحت إشراف شيخي الأستاذ الدكتور حسن الشافعي الذي يلتحم في حياته السلوك بالعلم؛ فلا تعرف أهو صوفي متكلم أم متكلم صوفي، ومع إدراكك أنه العالم الفذُّ المنشغل بالعلم جمعًا وعطاء ونقدا في مجال اختصاصه، ومتابعة لكل جديد في العلوم والآداب وأحوال الناس، توشك أن تزعم من حُسن لقائه للخلق وسعيه في خدمة عباد الله تعالى ومشاركاته في المجامع العلمية أنه لا يفرغ من ذلك لشيء سواه!!

ولقد أسعدني أن الشيخ الجليل ردَّني إلى ما كان يشغلني في أول صباي، حينما كلّفني كتابة تعريف موجز بالملامتية في التصوف الإسلامي، ليكون من مادة التعريف بهم في موسوعة علمية يزمع إصدارها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف بمصر، ولئن اقتصرت مادة ذلك التعريف الموجز على كلام الصوفية أنفسهم، وبيان صورة الملامتية ورتبتهم في طريقهم؛ فإنني وجدت في ذلك فرصة طيبة لإنشاء بحث أوسع يتناول بيان حقيقة الملامتية وأنواعهم وأصول المتحققين منهم ومسالكهم في التربية وتزكية النفس من خلال التراث الصوفي، ثم يتعرض لبيان صورة الملامتية عند خصوم التصوف والصوفية من السلفيين الجدد، الذين لقيت من عنتهم عند أول مقدمي للدراسة بالقاهرة ما لقيت. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

اسم الملامتية وحقيقتهم:

اسم "الملامتية" اشتهر على طائفة من صوفية المسلمين، والنسبة فيه على غير قياس إلى "الملامة"؛ أي العذل، وكذا اللوم واللوماء واللومى واللائمة، وقد أنشد الخليل بن أحمد:

ألا يا جارتي غُضِّي   عن اللوماء والعذل

ويقال: لامه على كذا يلومه لوما وملاما وملامة ولومة؛ فهو ملوم ومليم. وألامه بمعناه. ويقال: ألام الرجل: أتى ما يلام عليه. وقال سيبويه: ألام: صار ذا لائمة، ولامه أخبر بأمره، واستلام الرجل إلى الناس: أي استذم. واستلام إليهم: أتى إليهم بما يلومونه عليه. قال القطامي التغلبي:

فمن يكن استلام إلى ثوي   فقد أكرمت يا زفر المتاعا

ويقال: ألام الرجل فهو مليم: إذا أتى ذنبا يلام عليه. قال الله تعالى: ﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيْمٌ**﴾ (الصافات: ١٤٢). وفي النوادر: لامني فلان فالتمت، ومعضني فامتعضت، وعذلني فاعتذلت... ورجل لومة يلومه الناس، ولومة يلوم الناس؛ ولاومته: لمته ولامني. وتلاوم الرجلان: لام كل واحد منهما صاحبه. وجاء بلومة: أي ما يلام عليه(٤).

ولقد كان الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ) يعترض على اسم "الملامتية"، ويرى أن هذه النسبة لغة ضعيفة، ويسميهم "الملامية"(٥)، ومن قبل كان الهجويري علي بن عثمان الجلابي (ت ٤٦٥هـ) قد عقد في كتابه **كشف المحجوب** بابا لبيان الملامة، ثم سمى أصحابها في الكلام عن فرق الصوفية الفرقة "القصارية" نسبة إلى شيخهم الأول أبي صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار (ت ٢٧١هـ)(٦).

وأول صوفي أفردهم بالكتابة هو الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي(٧) (ت ٤١١هـ) في رسالته **أصول الملامتية**، وقد قرر في صدرها أنه لا يوجد لهم كتب مصنفة ولا حكايات مؤلفة، وإنما هي

٤- انظر الخليل بن أحمد: **العين**، وانظر ابن منظور: **لسان العرب**، مادة (ل و م).

٥- راجع ابن عربي: **الفتوحات المكية**، ص ٩٧٦. من النسخة المنشورة في موقع الوراق:
http://www.alwaraq.net/index2.htm?i=27&page=1

٦- راجع الهجويري: **كشف المحجوب**، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، ومراجعة أمين عبد المجيد بدوي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، ١٩٧٤م، ١/٢٥٩، ٢/٤١٢.

٧- هو محمد بن الحسين بن محمد، أبو عبد الرحمن الأزدي من أزد شنوءة أبا؛ غير أنه اشتهر بالنسبة إلى قبيلة أمه السلمية؛ لأنه نشأ بعد وفاة والده في حضن جده لأمه إسماعيل بن نجيد السلمي الذي لم يكن له ولد؛ فنسب أبو عبد الرحمن إليه. وقد كان للسلميين شأن في نيسابور ـ موطن ميلاده ـ فتحاً وحكماً، وثروة وجاهاً. انظر تصدير نور الدين شريبة لكتاب **طبقات الصوفية** للسلمي، المكتبة الأثرية، باكستان، ص ١٦ ـ ١٨.

أخلاق وشمائل ورياضات(٨)، ثم روى عن أبي حفص عمر بن سلمة النيسابوري (ت ٢٧٠هـ) في بيان سبب نسبتهم إلى الملامة أنه قال: "أهل الملامة قوم قاموا مع الله تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم، ولاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب من الصلاة وغيرها، وكتموا عنهم محاسنهم عن الخلق، وأظهروا لهم قبائح ما هم فيه؛ فلامهم الخلق على ظواهرهم ولاموا أنفسهم على ما يعرفون من بواطنهم؛ فأكرمهم الله بكشف الأسرار والاطلاع على أنواع الغيوب، وتصحيح الفراسة في الخلق، وإظهار الكرامات عليهم؛ فأخفوا ما كان من الله تعالى إليهم بإظهار ما كان منهم في بدء الأمر من ملامة النفس ومخالفتها؛ ليتنافر الخلق عنهم ويسلم لهم حالهم مع الله تعالى". وعن الشيخ حمدون القصار أنه قال عن طريق الملامة: "ترك التزين للخلق بكل حال، وترك طلب رضاهم في نوع من الأخلاق والأفعال، وألا يأخذك فيما عليك لله لومة لائم بحال"(٩).

وذكر السلمي أنه سمع جده أبا عمرو إسماعيل بن نجيد يقول: "لا يبلغ الرجل شيئاً من مقام هؤلاء القوم، حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء، وأحواله كلها دعاوي". وروى جواب بعض شيوخ الملامتية عن أصل طريقتهم: "تذليل النفس وتحقيرها، ومنعها مما تسكن إليه، أو يكون لها فيه راحة وإليه ركون"(١٠).

وهذا ما عبَّر عنه شرف الدين أبو عبد الله محمد البوصيري (ت ٦٩٥هـ) في **قصيدة البردة** حيث قال:

وحاذر النفس والشيطان واعصهما   وإن هما محَّضاك النصح فاتهم

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي يرى أنهم اختصوا بالاسم المنسوب إلى الملامة لوجهين: أحدهما أن الشيوخ أطلقوه على تلاميذهم لكونهم لا يزالون يلومون أنفسهم في جنب الله، ولا يخلصون لها عملا تفرح به تربية لهم، لأن الفرح بالأعمال لا يكون إلا بعد القبول، وهذا غائب عن التلاميذ. والوجه الثاني مختص عنده بالشيوخ الأكابر في سترهم أحوالهم ومكانتهم من الله حين رأوا الناس إنما وقعوا في ذم الأفعال واللوم فيما بينهم فيها؛ لكونهم لم يروا الأفعال من الله، وإنما يرونها ممن ظهرت على يده فناطوا اللوم والذم بها.. قال: "فلو كشف الغطاء ورأوا أن الأفعال لله؛ لما تعلَّق اللوم بمن

٨- انظر أبا عبد الرحمن السلمي: **أصول الملامتية وغلطات الصوفية**، تحقيق عبد الفتاح أحمد الفاوي، مطبعة الإرشاد، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٣٨. وهذا الذي قرره السلمي في بداية الرسالة ذكره في ختامها رواية عن شيخ الملامتية في زمانه محمد بن أحمد الفراء (ت ٣٧٠هـ)، راجعه، ص ١٧٤.

٩- المصدر السابق، ص ١٤٣.

١٠- المصدر السابق، ص ١٤٤.

ظهرت على يده، وصارت الأفعال عندهم في هذه الحالة كلها شريفة حسنة. وكذلك هذه الطائفة لو ظهرت مكانتهم من الله للناس لاتخذوهم آلهة، فلما احتجبوا عن العامة بالعادة انطلق عليهم في العامة ما ينطلق على العامة من الملام فيما يظهر عنها مما يوجب ذلك، وكأن المكانة تلومهم حيث لم يظهروا عزتها وسلطانها، فهذا سبب إطلاق هذا اللفظ في الاصطلاح عليهم. وهي طريقة مخصوصة لا يعرفها كل أحد انفرد بها أهل الله، وليس لهم في العامة حال يتميزون بها".

وقال ابن عربي عقب ذلك: "واعلم أن الحكيم من العباد هو الذي ينزل كل شيء منزلته ولا يتعدى به مرتبته، ويعطي كل ذي حق حقه، ولا يحكم في شيء بغرضه ولا بهواه، ولا تؤثر فيه الأعراض الطارئة. فينظر الحكيم إلى هذه الدار التي قد أسكنه الله فيها إلى أجل، وينظر إلى ما شرع الله له من التصرُّف فيها من غير زيادة ولا نقصان؛ فيجري على الأسلوب الذي قد أُبينَ له، ولا يضع من يده الميزان الذي قد وُضِعَ له في هذا الموطن، فإنه إن وضعه جهل المقادير، فإما يُخسِر في وزنه أو يطفف وقد ذمَّ الله الحالتين". وهذا يعني في وضوح التزام أهل الملامة المتحققين بظواهر الشريعة وترك مخالفتها فيما يظهر من الأعمال، وفيما يعمدون إلى ستره وإخفائه؛ حتى إن ابن عربي ليقول: "فالشريعة كلها هي أحوال الملامية"(١١).

ومن جملة هذا الكلام أخذ الشريف الجرجاني ما كتبه عن الملامية في **التعريفات**، فقال: "الملامية: هم الذين لم يظهروا ما في بواطنهم على ظواهرهم، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الإخلاص ويضعون الأمور مواضعها حسبما تقرر في عرضة الغيب، فلا تخالف إرادتهم وعلمهم إرادة الحق تعالى وعلمه، ولا ينفون الأسباب إلا في محل يقتضي نفيها، ولا يثبتونها إلا في محل يقتضي ثبوتها، فإن من رفع السبب من موضع أثبته واضعه فيه، فقد سفه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه في موضع نفاه، فقد أشرك وألحد"(١٢).

وفي المسألة فقه ظاهر ومشرب صوفي سيأتي بيانه، وغاية القول هنا أن أكثر أهل الملامة منقادون في ستر أحوالهم وأعمالهم لمحاولة تمحيص الإخلاص والتحقق بكماله في عبادتهم لله تعالى قدر الطاقة، على نحو ما فصله الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي (ت٦٣٢هـ) في كتابه **عوارف المعارف**؛ حيث قال: "الملامتية لهم مزيد اختصاص بالإخلاص، يرون كتم الأحوال

١١- ابن عربي: **الفتوحات المكية**، ص ١٩٨٢.

١٢- علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ص ٢٩٥.

والأعمال ويتلذذون بكتمها؛ حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصي من ظهور معصيته. فالملامتي عظم وقع الإخلاص وموضعه وتمسك به معتداً به، والصوفي غاب في إخلاصه عن إخلاصه". وحكى السهروردي أن بعض الملامتية دعي إلى سماع فامتنع، فقيل له في ذلك. فقال: "لأني إن حضرت يظهر عليَّ وْجدٌ، ولا أوثر أن يعلم أحد حالي"(١٣).

إن السهروردي مع تقديره لحال هذا الملامتي لا يراه من أهل النهايات، وينتقد الركون إلى هذه الحال في لطف؛ فيورد قول الشيخ أبي يعقوب يوسف بن حمدان السوسي: "متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص". ويتبعه بقول ذي النون أبي الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري (ت ٢٤٥هـ): "ثلاث من علامات الإخلاص: استواء الذم والمدح من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة". وعن أبي الحسين أحمد بن أبي الحواري (ت ٢٣٠هـ) أنه قال لشيخه أبي سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني (ت ٢١٥هـ): "إني إذا كنت في الخلوة أجد لمعاملتي لذة لا أجدها بين الناس. فقال له: إنك إذا لضعيف". وعلّق السهروردي على ذلك قائلا: "فالملامتي وإن كان متمسكاً بعروة الإخلاص، مستفرشا بساط الصدق، ولكن بقي عليه بقية رؤية الخلق، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق. والصوفي صفا من هذه البقية في طرفي العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية، ورآهم بعين الفناء والزوال"(١٤).

إن الشيخ السهروردي يميز بين الملامتي والصوفي المتحقق بأن الملامتي قد أخرج الخلق من عمله وحاله؛ لكنه أثبت نفسه فهو مخلص. أما الصوفي فقد أخرج نفسه من عمله كما أخرج غيره، فهو مخلص. قال السهروردي: "وقد يكون إخفاء الملامتي الحال على وجهين: أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق، والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة؛ فإن من خلا بمحبوبه

١٣- أبو حفص السهروردي: **عوارف المعارف**، المطبوع بذيل كتاب **إحياء علوم الدين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٨٩ ـ ٩٠. وحكاية دعوة بعض الملامتية إلى السماع أوردها السلمي في **أصول الملامتية**، ص ١٤٦ـ ١٤٧، فقال: وسئل بعضهم: ما بالكم لا تحضرون مجالس السماع؟ فقال: ليس تركنا مجالس السماع كراهية ولا إنكارا؛ ولكن خشية أن يظهر علينا من أحوالنا ما نُسِرُّه، وذلك عزيز علينا. قال السلمي: وإنما أحبوا حضور مجلس السماع للمتمكنين الذين لا يظهر عليهم من السماع شيء، وإن داموا عليهم.

١٤- السهروردي: المصدر السابق، ص ٨٩ ـ ٩٠.

يكره اطلاع الغير عليه؛ بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه. وهذا وإن علا ففي طريق الصوفي علة ونقص؛ فعلى هذا يتقدم الملامتي على المتصوف ويتأخر عن الصوفي"(١٥).

ولئن أرجع السهروردي الوجه الثاني إلى غيرة الملامتي نفسه، وعدّ ذلك علة ونقصا في طريق الصوفي، فإن الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي قد سبق إلى ذكر تفسير مذهب أهل الملامة بغيرة الله تعالى على أحبّائه(١٦). وقد تابعه الشيخ الهجويري الذي استفتح كلامه عن بيان الملامة بأن لها في خلوص المحبة تأثيراً عظيماً، وكأنه يلمح هذه العلاقة في إشارات قول الله عز وجل: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ**﴾ (المائدة: ٥٤).

وذكر الهجويري أنه قد جرت سنّة الله جل جلاله في المشتغلين بمحبته على أن يجعلهم محل لوم الناس ويحفظ أسرارهم من الانشغال بلومهم.. قال: "وهذه غيرة الحق الذي يحفظ أحبّاءه من ملاحظة الغير، حتى لا تقع على جمالهم عين، ويحميهم من رؤيتهم لأنفسهم، حتى لا يروا جمال أنفسهم ويعجبوا بها ويقعوا في آفة العجب والكبرياء، فسلّط عليهم الخلق ليطيلوا فيهم ألسنتهم، ومكّن منهم النفس اللوامة لتلومهم على كل ما يفعلون، فإذا فعلوا الشر لامتهم به، وإذا فعلوا الخير رمتهم بالتقصير. وهذا أصل قوي في طريق الله عز وجل لأنه لا يوجد في الطريق آفة أو حجاب أصعب من أن يصير الإنسان معجبا بنفسه". وبيّن الشيخ الهجويري أن طريق العجب إلى نفس الإنسان له بابان: أحدهما رضا الناس ومدحهم، والآخر رضا الإنسان واستحسانه لأعماله. ثم قال: "وقد سدَّ الله بفضله هذا الطريق على أحبّائه، حتى إن معاملاتهم وإن تكن طيبةً لا يرتضيها الخلق، لأنهم لا يرونهم رؤية حقيقية. ومجاهداتهم وإن تكن كثيرة فإنهم لا يرونها بحولهم وقوّتهم، ولا يعجبون بأنفسهم، حتى حفظوا من العجب بأنفسهم؛ فمن يرضى عنه الحق لا يرضى عنه الخلق، ومن يصطفي نفسه لا يصطفيه الحق"(١٧).

وإذا كان الشيخ السهروردي البغدادي قد أنزل الملامتية عن رتب أهل النهايات بين سالكي طريق التصوف، وجعلهم في رتبة متوسطة بين المتصوف والصوفي، فإن الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي

١٥- المصدر السابق، ص ٩٠.

١٦- راجع السلمي: **أصول الملامتية**، ص ١٤١.

١٧- الهجويري: **كشف المحجوب**، ١/٢٥٩ ـ ٢٦٠.

قد جعل لهم الطبقة الأعلى ودرجة الذروة في سُلَّم أرباب العلوم والأحوال، فأدنى هذه الطبقات من العوام ـ عنده ـ العلماء المشتغلون بأحكامهم في حفظ المسائل وجمعها ودراستها ونشرها، وهم علماء الشريعة الذين يحفظون أساسها ويدفعون عن أصول الدين، وإليهم المرجع في تصحيح المعاملات وتقييدها بالكتاب والسنة، وهم أئمة الدين ما لم يخلطوا أعمالهم بطمع أو يدنسوا أنفسهم بما يسقطهم عن محل الاقتداء؛ لكنهم لا يخبرون عما عليه الخواص من أحوال المعاملات والمنازلات والمشاهدات.

والطبقة الثانية: هم الخواص الذين خصّهم الله تعالى بمعرفته والانقطاع إليه؛ فليس لهم حظ فيما يشتغل به الخلق من أمور الدنيا. أسرارهم إلى الحق ناظرة وإلى الغيوب متطلعة، وجوارحهم بالعبادات مزينة، وقد خصّهم الله تعالى بأنواع الكرامات واجتياز الأسباب؛ فكانوا له وبه وإليه في حفظ السر والمجاهدات. لا تخالف ظواهرهم شيئاً من سير الشرع ولا تغيب بواطنهم عن ملاحظة الغيب. وهؤلاء هم الصوفية الذين يُلمح باطنهم من ظاهرهم، ويكون ظاهرهم مترجما عما في باطنهم، وقد مدح بعضهم بأنه أشبه الناس علانية بسرّ، وسرّاً بعلانية.

والطبقة الثالثة: هم الملامتية الذين زيّن الله تعالى بواطنهم بأنواع الكرامات من القرب والأنس واستصحاب المعية. قال أبو عبد الرحمن السلمي: "تحققوا في سرّهم معاني الغيب بحيث لم يكن للافتراق عليهم سبيل بحال، فلما تحققوا بالرتب السنية، وأُثبتوا في أهل الجمع والقربة والأنس والوصلة، غار الحق عليهم أن يجعلهم مكشوفين للخلق، فأظهر للخلق منهم ظواهرهم التي هي في معنى الافتراق من علوم الظواهر، والاشتغال بأحكام الشرع وأنواع الأدب وملازمة المعاملات، ليسلم لهم حالهم مع الحق في جمع الجمع والقربة". وذكر الشيخ السلمي بعد ذلك أن حال الملامتية هذه من أعلى الأحوال التي لا يظهر فيها أثر الباطن على الظاهر، وشبه حالهم بحال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رفع إلى المحل الأعلى من القرب والدنوّ، وكان قاب قوسين أو أدنى، ثم إنه رجع إلى الخلق كواحد منهم؛ على حين أن حال أهل الطبقة الثانية مشبهة بحال سيدنا موسى عليه السلام الذي لم يطق أحد النظر إلى وجهه بعدما كلّمه الله عز وجل[١٨].

وقال السلمي: "كان شيخ هذه الطائفة أبو حفص النيسابوري يقول: مريدو أهل الملامة متقلبون في الرجولية لا خطر لأنفسهم، ولا لما يبدو منها عليهم إلى مقامهم سبيل، لأن ظواهرهم

١٨- انظر السلمي: **أصول الملامتية**، ص ١٣٩- ١٤٢.

مكشوفة وحقائقهم مستورة. ومريدو الصوفية يظهرون من رعونات الدعاوي والكرامات ما يضحك منه كل متحقق لكثرة دعاويهم وقلة حقائقهم"(١٩).

وروى الشيخ السلمي عن بعض شيوخ الملامة أنه سئل عن طريق الملامة، فقال: "ترك الشهوة فيما يقع به التمييز من الخلق في اللباس والمشي والجلوس، والكون معهم على ظاهر الأحكام، والتفرّد عنهم في السرّ بحسن المراقبة؛ فلا يخالف ظاهره ظاهرهم بحيث يتميز عنهم، ولا يوافق باطنه باطنَهم فيساعدهم على ما هم عليه من العادات والطبائع"(٢٠).

وإلى نحو هذا ذهب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في رفع منزلة الملامية على سائر الصوفية؛ فقد رأى أنهم سادة أهل الطريق وأئمتهم، ولم يكتف بأن يجعل لهم في رسول الله قدوة على نحو ما صرّح به الهجويري(٢١)، بل زعم أنه صلى الله عليه وآله وسلم منهم؛ فقال: "هم سادات أهل طريق الله وأئمتهم، وسيد العالم فيهم ومنهم، وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الحكماء الذين وضعوا الأمور مواضعها وأحكموها، وأقرّوا الأسباب في أماكنها ونفوها في المواضع التي ينبغي أن تنفى عنها، ولا أخلوا بشيء مما رتَّبه الله في خلقه على حسب ما رتبوه؛ فما تقتضيه الدار الأولى تركوه للدار الأولى، وما تقتضيه الدار الآخرة تركوه للدار الآخرة"(٢٢). ثم قال في صدر الباب الذي خصصه لمعرفة منزل الملامية من حضرة المحمدية: "وهذا مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه. وممن تحقق به من الشيوخ حمدون القصار وأبو سعيد الخراز وأبو يزيد البسطامي. وكان في زماننا هذا أبو السعود بن الشبل وعبد القادر الجيلي ومحمد الأواني..."(٢٣).

١٩- المصدر السابق، ص ١٤٣. وقارنه بنشرة الدكتور عفيفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٨٨ ـ ٨٩.

٢٠- المصدر السابق، ص ١٤٥ – ١٤٦.

٢١- راجع الهجويري: **كشف المحجوب**، ١/٢٥٩ ـ ٢٦٠، حيث تجد إشارة الهجويري إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قدوة المحبين وإمام أهل الحقائق، كان قبل بعثته طيب الاسم عظيما، وعندما اتصل بالوحي وألبس خلعة المحبة أطلق الخلق فيه لسانهم؛ فقيل: كاهن وساحر وكاذب ومجنون.

٢٢- ابن عربي: **الفتوحات المكية**، ص ٩٧٦.

٢٣- السابق، ص ١٩٨٠.

ولا يكاد الشيخ الأكبر يتكلم عن درجات مقام أو حال من مقامات القوم وأحوالهم حتى يجعل أكثر هذه الدرجات وأعلاها لأهل الملامة، مثل: المجاهدة والشكر واليقين والصبر والمراقبة والحياء والذكر(٢٤). وقد يخصهم بما لم يتحقق فيه أحد من أهل طريق الله سواهم، مثل الفتوة(٢٥).

ويرى ابن عربي أن رجال الله تعالى ثلاثة لا رابع لهم: الطبقة الأولى منهم هم العباد الذين غلب عليهم الزهد والتبتل والأفعال الظاهرة المحمودة، وطهروا بواطنهم من كل صفة مذمومة قد ذمها الشارع؛ غير أنهم لا يرون شيئاً فوق ما هم عليه من هذه الأعمال، ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنية ولا الأسرار ولا الكشوف.

ثم الصوفية الذين يرون الأفعال كلها لله، وأنه لا فعل لهم أصلاً؛ فزال عنهم الرياء جملة واحدة. وهم مثل العُبَّاد في الجد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك؛ غير أنهم مع ذلك يرون أن ثم شيئاً فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات، فتتعلق هممهم بنيلها، فإذا نالوا شيئاً من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات.. قال: "وهم بالنظر إلى الطبقة الثالثة أهل رعونة وأصحاب نفوس، وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوى يشمرون على كل أحد من خلق الله، ويظهرون الرياسة على رجال الله".

والطبقة الثالثة هم الملامية الذين لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب، ولا يتميزون عن المؤمنين المؤدين فرائض الله بحالة زائدة يعرفون بها ... قال: "لا يبصر أحد من خلق الله واحداً منهم يتميز عن العامة بشيء زائد من عمل مفروض أو سنة معتادة في العامة، قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين...، وهم أرفع الرجال وتلامذتهم أكبر الرجال يتقلبون في أطوار الرجولية، وليس ثم من حاز مقام الفتوة والخلق مع الله دون غيره سوى هؤلاء، فهم الذين حازوا جميع المنازل. ورأوا أن الله قد احتجب عن الخلق في الدنيا وهم الخواص له؛ فاحتجبوا عن الخلق لحجاب سيدهم؛ فهم من خلف الحجاب لا يشهدون في الخلق سوى سيدهم، فإذا كان في الدار الآخرة وتجلّى الحق، ظهر هؤلاء هناك لظهور سيدهم"(٢٦).

وهذا الكلام يضم وجها رابعا إلى ما ذكرناه من قريب في بيان وجوه ستر الملامية لأعمالهم وأحوالهم، أعني: محاولة تمحيص الإخلاص وغيرة السالك على محبته وغيرة الله تعالى على أحبّائه.

٢٤- راجع السابق، ص ١٢٣١، ١٢٣٦، ١٢٤١، ١٣٠٤، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٣، ١٣٣٤، ١٣٤١.

٢٥- راجع السابق، ص ٢٦٨، ١٩٨١.

٢٦- ابن عربي: **الفتوحات المكية**، ص ١٩٨١.

وقد تكلم الشيخ ابن عربي نفسه عن الغيرة الإلهية التي تصون الأولياء والأصفياء في الباب الذي خصصه لمعرفة الأقطاب المصونين وأسرار صونهم؛ حيث يقول: "اعلم أيدك الله أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمين بالملامية، وهم الرجال الذين حلوا من الولاية في أقصى درجاتها، وما فوقهم إلا درجة النبوة، وهذا يسمى مقام القربة في الولاية، وآيتهم من القرآن: ﴿ **حُوْرٌ مَّقْصُوْرَاتٌ فِيْ الْخِيَامِ** ﴾ (الرحمن: ٧٢). ينبه لنعوت نساء الجنة وحورها على نفوس رجال الله الذين اقتطعهم إليه، وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون، أن تمتد إليهم عين فتشغلهم. لا والله ما يشغلهم نظر الخلق إليهم...؛ فحبس ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات من الأعمال الظاهرة، والمثابرة على الفرائض منها والنوافل؛ فلا يعرفون بخرق عادة فلا يعظمون ولا يشار إليهم بالصلاح الذي في عرف العامة، مع كونهم لا يكون منهم فساد فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم الغامضون في الناس"[٢٧].

وعلى حين انشغل هؤلاء الشيوخ ببيان صاحب الفضل والرتبة الأعلى بين أهل الطريق نجد أن الشيخ زروق شهاب الدين أبا العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي (ت٨٩٩هـ) يتجاوز ذلك في تمييزه بين الصوفي والفقير والملامتي، فيقول: "اختلاف النسب قد يكون لاختلاف الحقائق، وقد يكون لاختلاف المراتب في الحقيقة الواحدة. فقيل: إن التصوف الفقر والملامة، والتقريب من الأول. وقيل: من الثاني. وهو الصحيح؛ على أن الصوفي هو العامل في تصفية وقته عما سوى الحق، فإذا سقط ما سوى الحق من يده فهو الفقير، والملامتي منهما هو الذي لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً، كأصحاب الحرف والأسباب ونحوهم من أهل الطريق. والمقرّب من كملت أحواله، فكان بربه لربه، ليس له عن سوى الحق إخبار ولا مع غير الله قرار؛ فافهم"[٢٨].

والشيخ محيي الدين بن عربي يجعل سعي الملامية إلى التخلق بستر أحوالهم مع الله تعالى عن الخلق مبنيا على ميزان الشريعة الظاهرة، فيقول: "فمن الميزان أن لا يعرض الحكيم بذكر الله ولا بذكر رسوله، ولا أحد ممن له قدر في الدين عند الله في الأماكن التي "يعرف هذا الحكيم أنه" إذا ذكر الله فيها أو رسوله، أو أحد ممن اعتنى الله به كالصحابة عند الشيعة؛ فإن ذلك داع إلى ثلب المذكور وشتمه وإدخال الأذى في حقه؛ ففي مثل هذا الموطن لا يذكره. ألا تراه صلى الله عليه وسلم قد

٢٧- السابق، ص ١٨٨.

٢٨- الشيخ زروق: **قواعد التصوف** ـ القاعدة التاسعة، تصحيح محمد زهدي النجار. المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

نهانا أن نسافر بالقرآن الذي هو المصحف إلى أرض العدو، فإنه يؤدي ذلك إلى التعرض لإهانته وعدم حرمته مما يطرأ عليه ممن لا يؤمن به"(٢٩). وعلى هذا يجب ستر ما يكون في إظهاره فساد وضرر، وهذا ليس من "التقية" في مفهومها الشيعي في شيء، لأن صاحب الملامة عند الشيخ الأكبر لا يُظهر مخافة سطوة الخلق عليه ما يعتقد في نفسه أنه الباطل خلاف الحق، بل يستر كرامة لا يترتب على سترها ضرر، أو يصبر على أذى هو متمكن من دفعه، أو يرضى بأن يقوم بأداء عمل جائز شرعا مع كونه غير مناسب لمقامه أو مكانته بين الخلق، تهذيبا لنفسه وأخذا لها بالشدة، وقد قال الشيخ الهجويري: "وهناك أيضاً جماعة يمارسون الملامة لرياضة النفس، لتتأدب باحتقار الخلق لهم، وينتصفون منها"(٣٠).

وقد رد الهجويري هذا المسلك الأخير إلى ما حكاه عن ذي النورين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يوما قادما من بستان نخل له في زمان خلافته، وقد حمل حزمة حطب، وكان له أربعمائة غلام، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما هذا؟! فقال: أريد أن أجرب نفسي. قال الهجويري: "هذا حتى لا يمنعه جاهه بين الخلق من أي عمل، وهذه الحكاية صريحة في إثبات الملامة"(٣١).

ويظهر المشرب الصوفي في تعلق الملامي بستر الله تعالى جلال ألوهيته في موطن الدنيا عن مدارك العباد الواجب عليهم من التعظيم والإكبار والتقديس ما تستحقه الألوهية، مع تعدي بعض العبيد ومنازعتهم للحق في عظمته وكبريائه، وادعائهم الشركة في الربوبية.. قال ابن عربي: "وسبب ذلك أن الموطن اقتضى أن ينحجب الخلق عن الله، إذ لو أشهدهم نفسه في الدنيا لبطل حكم القضاء والقدر الذي هو علم الله في خلقه بما يكون عنهم وفيهم، فكان حجابه رحمة بهم وإبقاء عليهم، فإن تجليه سبحانه يعطي بذاته القهر فلا يتمكن معه دعوى. فلما كانت الألوهية تجري بحكم المواطن كان هذا الأصل الإلهي مشهود الملامية، إذ كانوا حكماء علماء فقالوا: نحن فروع هذا الأصل. إذ كان لكل ما يكون في العالم أصل إلهي، ولكن ما كل أصل إلهي يكون في حق العبد إذا اتصف به محموداً فإن الكبرياء أصل إلهي بلا شك، ولكن إن اتصف به العبد، وصير نفسه فرعا لهذا الأصل، واستعمله باطنا، فإنه مذموم بكل وجه بلا خلاف، ولهذا رأت الطائفة أن خرق العوائد واجب سترها على الأولياء، كما أن إظهارها واجب على الأنبياء لكونهم مشرعين لهم التحكم في النفوس والأموال والأهل...، فإن الرسول من الجنس فلا يسلم له دعواه ما ليس له بأصل إلا بدليل قاطع وبرهان، والذي ليس له التشريع ولا التحكم في

٢٩- ابن عربي: **الفتوحات المكية**، ص ١٩٨٢.

٣٠- الهجويري: **كشف المحجوب**، ٢٦٥/١.

٣١- المصدر السابق، ص ٢٦٢.

العالم بوضع الأحكام فلأي شيء يظهر خرق العوائد حين مكنه الله من ذلك؟! ليجعلها دلالة له على قربه عنده، لا لتعرف الناس ذلك منه؛ فمتى أظهرها في العموم فلرعونة قامت به"(٣٢).

أنواع الملامتية:

في تاريخ التصوف الإسلامي وحاضره حكايات عن أهل الملامة والمنتسبين إليها، قد يصعب إدراجها في سلك النظام المنضبط بظاهر الشريعة على ما يقرب فهمه ولا يبعد توجيهه، ومن ذلك ما يلتقطه خصوم الصوفية ليبنوا عليه أحكاما عامة يتهمون بها جميع الملامتية، ويشنعون بذكرها على جملة الصوفية. ومع ما في هذا المسلك من إجحاف وتعد على حيادية الحكم العلمي، فإن أكثر ما انتقده خصوم الصوفية كانوا فيه عالة على مسيرة التصحيح والنقد الذاتي التي لم يتخلف نشاطها في تاريخ التصوف الإسلامي منذ نشأته، ولا يكاد يخلو منها شيء من المؤلفات الرئيسة لصوفية الإسلام على امتداد تاريخهم.

ومن هذا ما فعله الشيخ الهجويري حينما أجرى الكلام في الملامة على أنها ثلاثة أنواع: ملامة استقامة السير، وملامة القصد، وملامة الترك.

أما ملامة استقامة السير، فأهلها المحافظون على الدين، المراعون لله تعالى في المعاملات، ولا يفرطون في شيء مما فرضه الله عليهم؛ فيلومهم الخلق وهم فارغون منهم لاشتغال قلوبهم بالحق. وأحسب أن هؤلاء من عناهم الشيخ محيي الدين الحاتمي بكلامه، ورفع منزلتهم على سائر الصوفية.

وأما ملامة القصد، فأهلها الفارون من حصول الجاه لهم بين الخلق، المريدون لنفي اشتغال قلوبهم إلا بالحق، ومنهم من يتكلف إظهار ما ينفر الناس منه لينفي ما علق بنفسه من إقبالهم عليه، بما لا يخالف الشريعة وإن أوهم أنه مخالف، وقد يكون هو المشتغل بالناس لينفضوا أيديهم عنه والناس فارغون منه. وأحسب أن هؤلاء من عناهم الشيخ السهروردي بكلامه، وجعل منزلتهم دون منزلة الصوفي المتحقق وأعلى من منزلة المتصوف.

أما ملامة الترك، فالضلال متمكن من أصحابها الذين عجزت نفوسهم عن اتباع الشريعة؛ فزعموا أنهم يسيرون في طريق الملامة، وهم في الحقيقة مبطلون في الادّعاء لا يقومون إلا بما تمليه عليه أهواؤهم(٣٣).

٣٢- ابن عربي: **الفتوحات المكية**، ص ١٩٨٢، ١٩٨٣. وراجع أيضاً السلمي: **أصول الملامتية**، ص ١٤٣.

٣٣- راجع الهجويري: **كشف المحجوب**، ٢٦١/١.

ولا إشكال في ذم أهل الدعوى الباطلة، ولا مماراة في نفيهم من جملة أهل الحق، ولذلك قال الشيخ الهجويري: "وأما من كان طريقه الترك، ويختار ما يخالف الشريعة ويقول: إنني أسلك طريق الملامة. فتلك ضلالة واضحة وآفة ظاهرة وجنون صادق، على نحو ما يوجد عليه كثيرون هذه الأيام، ومقصودهم من ردّ الخلق قبول الخلق؛ لأنه يجب أن يكون الشخص أولا مقبولا من الخلق حتى يطلب ردَّهم، ويظهر بفعل يردُّونه به؛ إذ إن تكلف الرد لقبولٍ لم يحصل يكون حيلةً.

واتفق لي ذات مرة أن أصحب أحد هؤلاء الأدعياء المبطلين، فظهر يوما بمعاملة باطلة، وجعل الملامة عذرا لها؛ فقال له رجل: هذا ليس بشيء. فرأيته يزفر؛ فقلت له: يا هذا، إذا كنت تسلك طريق المعاملة وأنت صادق في هذا، فإنكار هذا الرجل لفعلك تأكيد لمذهبك، وما دام هو يوافقك في طريقك، فلم الخصومة والغضب؟! وقصتك هذه أقرب إلى الدعوى منها إلى الملامة، وكل من يدعو الخلق يجب أن يدعوهم بأمر له برهان من الحق، وبرهانه حفظ السنّة. ولما كنت أرى منك ترك الفريضة ظاهراً وأنت تدعو الخلق، فإن هذا الأمر يخرج عن دائرة الإسلام"(٣٤).

وقد روى السلمي عن بعض شيوخ الملامة أنه قال: "من يفرق بين ملامة نفسه وملامة الناس له، ويتغير الحال والوقت عنده في ذلك، فهو في رعونة الطبع، ولم يبلغ درجة القوم"(٣٥).

ولا إشكال أيضاً في مدح أهل ملامة الاستقامة، ولا عيب في طلب التأدب بآدابهم في إقامة الدين، والتخلّق بأخلاقهم في حفظ الحال وستر ما لا يلزم إظهاره من الأعمال، مع الانشغال بالحق وترك العناية بآراء الخلق. وإن أول من اشتهر به مذهب الملامة من الصوفية المسلمين هو أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار (ت ٢٧١هـ)، وقد عده الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في الطبقة الأولى من طبقات الصوفية ـ كان من كبار رجالات العلم يذهب في الفقه مذهب سفيان الثوري أحد أمراء المؤمنين في علم الحديث، وكان هو نفسه من رواة الحديث المسندين، واختار السلمي من مروياته المسندة في الترجمة له حديثا يمثل أصلا من أصول طريقته؛ فروى عن والده، عن عبد الله بن مُنازل، حدثنا حمدون بن أحمد القصار، حدثنا إبراهيم الزراد، حدثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله، عن أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزول قدما عبد يوم

٣٤- المصدر السابق، ١/٢٦٣.

٣٥- أبو عبد الرحمن السلمي: **طبقات الصوفية**، ص ١٥٤، وانظر له أيضاً: **أصول الملامتية**، ص ١٥٨.

القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وأين وضعه، وعن علمه ما عمل فيه"(٣٦).

وترجم له الحافظ شمس الدين الذهبي في **سير أعلام النبلاء**، فذكر أنه قدوة الملامتية التي تعني "تخريب الظاهر وعمارة الباطن مع التزام الشريعة"، ولنا مع هذا التعريف وقفة، فهو لا يصدق على ملامة الاستقامة. وتابع الحافظ الذهبي قائلا: "وكان سفيانيا. سمع محمد بن بكار بن الريان، وابن راهويه، وأبا معمر الهذلي، وصحب أبا تراب، وأبا حفص النيسابوري. وكان من الأبدال. روى عنه ابنه الحافظ أبو حامد الأعمشي، ومكي بن عبدان، وأبو جعفر بن حمدان وآخرون" ثم نقل عن طبقات السلمي بعض أقواله المعبّرة عن مذهبه في الملامة المرضية(٣٧).

ومن أقوال حمدون القصار: "لا يجزع من المصيبة إلا من اتهم ربه". وقال: "من ضيع عهود الله عنده، فهو لآداب الشريعة أضيع". وقال: "استعانة المخلوق بالمخلوق، كاستعانة السجين بالسجين". وقال له تلميذه عبد الله بن مُنازل مرة: أوصني. فقال: "إن استطعت ألا تغضب لشيء من الدنيا فافعل". وقال: "من شغله طلب الدنيا عن الآخرة، ذل إما في الدنيا وإما في الآخرة". وقال: "كفايتك تساق إليك باليسر من غير تعب، وإنما التعب في طلب الفضول". وقال: "من نظر في سير السلف، عرف تقصيره وتخلُّفه عن درجات الرجال". وقال: "من استطاع منكم ألا يعمى عن نقصان نفسه، فليفعل". وقال: "لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستوراً منك" وقال: "قعود المؤمن عن الكسب إلحاف في المسألة". وقال: "الزهد عندي: ألا تكون بما في يدك أسكن قلبا منك بضمان سيدك". وقال: "لا أحد أدون ممن يتزين لدار فانية، ويتجمل لمن لا يملك ضره ولا نفعه". وقال: "تهاون بالدنيا، حتى لا يعظم في عينك أهلها ومن يملكها".

وقيل له: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ فقال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن. ونحن نتكلم لعز النفس، وطلب الدنيا، وقبول الخلق.

٣٦- المصدر السابق، ص ١٢٤. والحديث أخرجه الترمذي في **سننه**، ٦١٣/٤. كتاب صفة القيامة، باب في القيامة في شأن الحساب والقصاص. بإسناد آخر عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله، عن أبي برزة مرفوعا بلفظ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟". وقال: حسن صحيح.

٣٧- الحافظ الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط بالاشتراك. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤١٣هـ: ٥٠/١٣، ٥١.

وسئل حمدون القصار: متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس؟ فقال: إذا تعيّن عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى في علمه، أو خاف هلاك إنسان في بدعة يرجو أن ينجيه الله منها بعلمه[٣٨].

وروى الهجويري أنه لما عظم شأن حمدون القصار في العلم، جاءه شيوخ نيسابور فقالوا له: ينبغي اعتلاء المنبر وعظة الخلق ليكون كلامك فائدة للقلوب. فقال: لا يجوز لي الكلام. قالوا: لماذا؟ قال: لأن قلبي متعلق بالدنيا وجاهها، فلا يفيد كلامي ولا يؤثر في القلوب، والكلام الذي لا يؤثر في القلوب يكون استخفافا بالعلم، أو استهزاء بالشريعة. والكلام مسلّم لمن يكون في صمته خلل الدين، فإذا تكلم ارتفع الخلل. ثم علّق الهجويري على ذلك قائلا: "وأنا أعرف أن ذلك العظيم قد دفعهم عن نفسه، تركا للجاه والشهرة"[٣٩].

وذكر أبو عبد الرحمن السلمي أن حمدون القصار سئل عن طريق الملامة فقال: «خوف القدرية، ورجاء المرجئة"[٤٠]. والذي يظهر لي في معنى هذه العبارة أن الملامي يستشعر مسئوليته التامة عن أعماله، ويحاسب نفسه عليها حذر التقصير، وهو في ذلك مشبه بخوف القدرية؛ على حين أنه في الوقت نفسه لا يقطع طمعه في عفو الله، ولا أمله في مغفرته، ويعتمد على رحمته وعنايته، وهو في ذلك الرجاء مشبه بالمرجئة. لكن الشيخ الهجويري رحمة الله عليه رأى أن وراء العبارة رمزا ومعنًى خفيًّا، حاول شرحه وتجليته بأن الإشكال في أن قدر ميل الإنسان إلى الجاه بين الخلق، هو نفسه قدر بعده عن حضرة الله تعالى. وبقدر ما يميل الإنسان إلى رضا الخلق والقبول عندهم يكون تخلفه عن الله تعالى. والسالك هنا بين خطرين: أولهما الخوف من حجاب الخلق، والآخر منع الفعل الذي يلومونه عليه.. قال: "فلا هو يركن إلى جاههم، ولا هو بقادر على أن يجعلهم مذنبين بملامته. فينبغي للملامتي أولا أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه، وأن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبيرة ولا الصغيرة في الشرع ليردّه الخلق، حتى يكون خوفه في المعاملة كخوف القدرية، ورجاؤه في معاملة اللائمين كرجاء القدرية"[٤١].

٣٨- عن أبي عبد الرحمن السلمي: **طبقات الصوفية**، ص ١٢٥ – ١٢٩.

٣٩- الهجويري: **كشف المحجوب**، ١/٣٣٨.

٤٠- السلمي: **طبقات الصوفية**، ص ١٢٩.

٤١- الهجويري: **كشف المحجوب**، ١/٢٦٤.

وأنا أحسب أن تفسير الشيخ الهجويري رحمة الله عليه أدخل في ملامة القصد منه في ملامة الاستقامة. وملامة القصد هذه هي موضع النقد وموطن الخلاف في الحكم، وطالبها إما أن يحظى بهداية الله وتوفيقه فيكون من أهل ملامة الاستقامة، وإما أن يصيبه الخلل ويغلب عليه الهوى فيكون من أهل ملامة الترك. وقد مثل لها الشيخ الهجويري بما حكي عن أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (ت ٢٦١هـ)، من أنه كان عائداً من سفرة إلى الحجاز، فنودي في المدينة أن أبا يزيد قد جاء؛ فخرج الناس جميعاً لاستقباله وأدخلوه المدينة بإكرام، ولما انشغل بمجاملتهم تخلف عن الحق وتشتت، فلما دخل السوق أخرج من كمه رغيفا وأخذ في أكله، وكان هذا في شهر رمضان؛ فرجع الناس جميعاً وتركوه وحده(٤٢).

وهذه الحكاية ليس فيها ما يذم به البسطامي شريعة؛ لأن الشيخ كان قادما من سفر له أن يأخذ بالرخصة وله أن يأخذ بالعزيمة، وربما عمل على إيهام القوم أنه يأكل بما لاكه في فمه من الرغيف. وهنا يأتي موضع كلام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) عن الملامية في كتاب **إحياء علوم الدين**، في بيانه لعلاج حُب الجاه الذي يعده من المهلكات؛ لأن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفا بالتودد إليهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد المؤدي إلى التساهل في العبادات والرياء بما يظهر منها للتوصل إلى اقتناص القلوب.

وإذا كان المرض على هذه الدرجة من الخطورة، فلا بد من علاج. والعلاج عند أبي حامد مركب من علم وعمل، وإجمالا يكون البدء بالعلم المظهر لأسباب حُب الجاه، والكاشف لدواعي ميل النفس إليه، ليكون العمل على قطع الأسباب ونفي الدواعي على هدى وبصيرة.. قال أبو حامد: "وأما من حيث العمل، فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق، وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول، ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق. وهذا هو مذهب الملامتية، إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس، فيسلموا من آفة الجاه. وهذا غير جائز لمن يقتدى به، فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك؛ بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس، كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني. ومنهم

٤٢- المصدر السابق، ص ٢٦٢.

من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس. وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه؛ إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير .

وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول؛ فإن المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به؛ جزعت نفسه وتألمت، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، ويتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة. ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال، بل هو شر منه فإن فتنة الجاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى، وقطع طمعه عن الناس رأساً، أصبح الناس كلهم عنده كالأراذل، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم..."(٤٣).

وهذا الكلام في جملته يعني أن أعمال ملامة القصد مثل الأدوية لمن ألمَّ به مرض أو استحكم منه داء، وإنما يكون التداوي بعلم، ويكون الدواء على قدر الداء بلا زيادة ولا نقصان، ولهذا لا يلزم أن تكون له صورة واحدة؛ بل تتبدل صورته بحسب تغير أحوال الناس، وقد يكون المسقط للجاه عندهم إظهار لزوم التقوى والطهارة، وقد ذكر الهجويري أنه كان يلزم للملامة في زمان الخير فعل مستنكر ديانة، والظهور بشيء مخالف للشريعة؛ على حين أنه إذا أراد رجل أن يلام في زمان الهجويري، فليؤد ركعتين طويلتين، أو فليقم بأداء ما عليه من عبادات. وعندئذ سرعان ما يلقبه كل شخص بأنه مدع كذاب(٤٤).

ويعني في جملته أيضاً أن ملامة القصد ليست بدار قرار ونهاية لسالكي الطريق، ولهذا لم يكن انتقاد الشيخ الهجويري لمن يركن إليها بأقل مما سبق بيانه في كلام الشيخ السهروردي، فتراه يقول: "أما عندي؛ فطلب الملامة عين الرياء، والرياء عين النفاق، لأن المرائي يسلك الطريق الذي

٤٣- الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ٣/٣٠٤، ٣٠٥.

٤٤- انظر الهجويري: **كشف المحجوب**، ١/٢٦٣، وهذا في زمان الهجويري الذي عاش في القرن الخامس الهجري؛ فما بال زماننا؟!

يقبله الخلق، والملامتي يسلك بالتكلف الطريق الذي يرده الخلق. وهذان الفريقان ظلوا في الخلق ولا مخرج لهم...، ولا يخطر على قلب الفقير غير حديث الحق، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعنيين، ولا يقيده شيء.

وقد اتفق لي ذات مرة صحبة أحد الملامتية في ما وراء النهر، وعندما تملكني في الصحبة حال من البسط قلت له: يا أخي، ما مرادك من هذه الأفعال المشوشة؟ قال: خلو الخلق مني. فقلت له: هؤلاء الخلق كثيرون، ولن تجد العمر والزمان والمكانة لإخلاء الخلق منك؛ فأخل أنت نفسك من الخلق لتخلص من هذه المشاغل.

إنه لا يراك أحد، فلا تر أنت نفسك، وآفة حالك من عينك. ثم ما شأنك بالغير؟ من يلزمه طلب الشفاء من الاحتماء "يعني تقليل الطعام"، ويطلبه من الغذاء، فليس من الناس"(٤٥).

وهذا النوع من الملامة هو الذي يصدق عليه التعريف الذي سبق في كلام الحافظ الذهبي "تخريب الظاهر وعمارة الباطن مع التزام الشريعة"؛ فصاحب ملامة الاستقامة لا يسعى إلى خراب ظاهره، ومن أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته. وفي **شرح الجامع الصغير**، في الكلام على حديث: "ما تقرّب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي"، وهو حديث ضعيف رواه ابن المبارك في **الزهد** من رواية أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب بن صهيب مرسلاً، قال العلامة الشيخ عبد الرؤوف المناوي: "وهذا يفيد أن عمل السر أفضل من عمل العلانية، ومن ثم فضَّل قوم طريق الملامتية على غيرها من طرق التصوف، وهو تعمير الباطن فيما بين العبد وبين الله. قال في العوارف يعني الشيخ أبا حفص السهروردي في كتابه **عوارف المعارف**: الملامتية قوم صالحون يعمرون الباطن ولا يظهرون في الظاهر خيراً ولا شراً. ويقال لهم: النخشبندية. ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته. قال الفاكهي: ومن تعمير الباطن اشتغاله بالذكر سراً سيما في المجامع، وبه يرقى إلى مقام الجمع، وفي لزوم كلمة الشهادة تأثير في نفي الأغيار وتزكية الأسرار، وفي كلمة الجلالة عروج إلى مراتب الجلالة، ومن لازم ذلك صار من أهل الغيب والشهادة وآل أمره إلى أن تصير كل جارحة منه تذكر الله يقظة ومناما.

قال العارف المرسي: من أراد الظهور فهو عبد الظهور، ومن أراد الخفاء فهو عبد الخفاء، وعبد الله سواء عليه أظهره أم أخفاه. وقيل لا يكون العبد مخلصا حتى يحذر من اطلاع الخلق على طاعته كما يخاف أن يطلعوا على معصيته إلى أن يتحقق الإخلاص لمولاه ويقهر نفسه بمجاهدة هواه"(٤٦).

٤٥- المصدر السابق، ص ٢٦٥.

٤٦- عبد الرؤوف المناوي: **فيض القدير**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ، ٥/ ٤٣٧.

وهذا يعني أن مسيرة المتحققين من أهل الاستقامة لم تتطور لتدخل في نوع مرزول يتحلل سالكوه من الشريعة؛ فأنواع الملامة لم تكن أطواراً يؤدي بعضها إلى بعض على نحو ما صوره الدكتور أبو العلا عفيفي حين قال: "وقد كانت الفكرة الأصلية في المذهب الملامتي، كما أوضحها حمدون القصار وتلميذه ابن منازل ـ الحرب الدائمة ضد النفس ورعونتها وريائها، والعمل على كتمان حسناتها. فغالى أتباع الملامتية المتأخرون، مثل: محمد بن حمدون الفراء (ت ٣٧٠هـ) ـ وكان من أصحاب أبي علي الثقفي وأتباع ابن منازل ـ في تفسير هذا المبدأ وتطبيقه. فبعد أن كان مبدأ سلبيا صرفا يدعو إلى إخفاء الحسنات، اتخذ على أيدي هؤلاء اتجاها إيجابيا، فطالب أهل الملامة مريديهم بتعمد المخالفة، والظهور في الناس بالمظاهر التي تثير لومهم، وتجلب عليهم سخطهم وازدراءهم.

وهكذا مضى الملامتية في غلوهم حتى وقعوا في العصور الحديثة ـ في تركيا خاصة ـ في نوع من الإباحية، انمحى فيه كل فرق بين الحسن والقبيح، والخير والشر"[٤٧].

وذلك لأن المتحللين من الشريعة سبقوا شيوخ الملامتية من أهل الاستقامة وعاصروهم وكانوا بعدهم، دون أن توجد أية صلة بينهم في العلم والسلوك. وهذا ما أقر به الدكتور عفيفي حين قال: "لكننا لا نعرف صلة تاريخية ـ إلا في مجرد الاسم ـ بين هؤلاء الملامتية المستهترين، وبين أوائل الملامتية الذين صورهم لنا السلمي في رسالته بتلك الصورة الرائعة"[٤٨].

أصول الملامتية ومسلكهم في التربية وتزكية النفس:

لأهل الفقه قواعد عامة متعلقة بتحقيق مقاصده لا يشذ عنها الفقهاء في قيامهم باستنباط الأحكام، وتحتها أصول المذاهب، وهذه الأصول لا تنفي وجود خصوصيات يتميز بها فقهاء المذاهب قد تدعو بعضهم إلى ترجيح اجتهاد لغير إمامه، وتقوده أحيانا إلى الفتوى على خلاف مذهبه. ولا ينكر ذلك على الفقهاء إلا من جهل عملية الاستنباط، ولم يخبر تجليات الرحمة في اختلاف أهل الفقه، فهو خامل في جهل، أو هالك في عصبية، أو مكابر معاند منكر لما ظهر له من الحق.

والمنصف الذي سلم ذلك للفقهاء في استنباط الأحكام، لا ينكره على الصوفية في التربية وتزكية النفس، وفي معرفة الأحكام الجارية على الجارحة الباطنة؛ فللقلب أحكام يعنى بها الصوفية،

٤٧- أبو العلا عفيفي: **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة**، ص ٤٦، ٤٧. وإني لأحسب أن الدكتور عفيفي بحكم دراسته في الغرب وتلمذته لكبار المستشرقين، قد خضع على نحو ما في تصوره هذا لما كان ينشغل به المستشرقون آنذاك من الكلام في التطور والتأثير والتأثر.

٤٨- المصدر السابق، ص ٤٧.

كما للجوارح الظاهرة أحكام يعنى بها الفقهاء على ما ذكره السراج الطوسي في صدر لمعه. وقد قال الشيخ زروق: "ضبط العلم بقواعده مهم، لأنها تضبط مسائله وتفهم معانيه وتدرك مبانيه وينتفي الغلط من دعواه وتهدي المتبصر فيه وتعين المتذكر عليه وتقيم حجة المناظر وتوضح المحجة للناظر وتبين الحق لأهله والباطل في محله. واستخراجها من فروعه عند تحققها أمكن لمريدها، لكن بُعد الأفهام مانع من ذلك، فلذلك اهتم بها المتأخر والمتقدم"(٤٩).

ولئن تأخر السعي في جمع قواعد التصوف وتدوينها، فهذا لا يعني غياب هذه القواعد عن توجيه حركة شيوخه فيما مضى؛ فالبدء في هذه العلوم يعني الجمع والضبط وحسن التبويب، ولا يعني الاختراع واستفتاح العلم بما كان مجهولا أو معدوما، وقد قال الشيخ زروق: "لما كانت دلالة التصوف بجملته على التوجه إلى الله من حيث يرضى، كفت أوائله مع التزام واتباع الفقه، فكان الاعتناء بعمله أكثر من علمه، ومن ثم لم تدون قواعده ولم تمهد أصوله، وإن أشار إليها أئمته كالسلمي في أصوله، والقشيري في رسالته"(٥٠).

ولقد كان تدوين القواعد الفقهية متأخراً عن تدوين أصول المذاهب، وإني لأحسب أن طول التأمل في أصول المذاهب الفقهية الناضجة بالمدارسة والتعليم، ورجع النظر في سعة تطبيقاتها على آراء الفقهاء المتنوعة في أحكام الفروع، هو الذي قاد إلى ظهور القواعد الفقهية. وكذلك كان سعي الشيخ زروق في ضبط القواعد العامة لمسلك جملة الصوفية وتدوينها متأخراً، وإن كانت محاولته الرائدة لم تتبع بما يبلغ بها نضج القواعد الفقهية؛ على حين أن الحديث عن أصول المشايخ في التربية وطرقهم المتنوعة في تزكية النفس بدأ في وقت مبكر من تاريخ التصوف الإسلامي.

فتجد الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي في أول مؤلف مدون عن الملامتية يشير إلى اختلاف طرائق شيوخها في تربية المريدين، فيقول: "وكل طريق أبي حفص [عمر بن سلمة النيسابوري (ت٢٧٠هـ)] وأصحابه في هذا أن يرغّبوا المريدين في الأعمال والمجاهدات، ويظهروا لهم مناقب الأفعال ومحاسنها ليرغبوهم بذلك في دوام المعاملة والمجاهدة والملازمة على ذلك.

وكانت طريقة حمدون القصار وأصحابه تحقير المعاملات عند المريدين، ودلالتهم على عيوبها، لئلا يعجبوا بها ويقع ذلك عندهم موقعا.

٤٩- الشيخ زروق: **قواعد التصوف**، القاعدة رقم ٣٦.

٥٠- المصدر السابق، القاعدة رقم ٣٧.

فتوسط أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري (ت ٢٩٨هـ)، وأخذ طريقا بين طريقين، وقال: كلا الطريقين صحيح، ولكل واحد منهما وقت؛ فأول ما يجب أن ندل المريد عليه هو تصحيح المعاملات، ليلزم العمل ويستقر عليه، فإذا استقر عليه وداوم فيه واطمأنت نفسه إليه، فحينئذ تنكشف له عيوب معاملاته لعلمه بتقصيره فيها، ولعلمه أنها ليست مما يصلح لله سبحانه وتعالى حتى يكون فيها مستقراً على عمله غير مغتر به. وإلا فكيف ندله على عيوب الأفعال وهو خال من الأفعال، وإنما يكشف له عيب الشيء إذا لزمه وتحقق به"[٥١].

وقال السلمي معلّقا على ذلك: "وهذا أعدل الطرق إن شاء الله". ومن ثم تجده حينما يصف طريق الملامتية في تربية المريدين يقول: "وأهل الملامة إذا صحبهم المريدون دلوهم على ما يظهرون لهم من الإقبال على الطاعات، واستعمال السنن في جميع الأوقات، وملازمة الآداب ظاهراً وباطناً في كل الأحوال[٥٢]، ولا يمكنونهم من الدعاوى، ولا الإخبار عن آية أو كرامة، ولا الاستناد إليه؛ بل يدلونهم على تصحيح المعاملات وإدامة المجاهدات. فيأخذ المريد في طريقهم ويتأدب بآدابهم، فإذا رأوا منه عيبا في أحواله وأفعاله، بيّنوا له عيوبه ودلّوه على إسقاط ذلك العيب.

ومتى ادّعى المريد عندهم حالا ورأى لنفسه مقاما، صغروا ذلك في عينه إلى أن يتحقق لهم صدق إرادته وظهور الأحوال عليه، فيدلّونه على ما هم فيه وعليه من ستر الأحوال وإظهار الآداب، واتباع الأوامر وترك النواهي، فيكون تصحيح المقامات كلها عليه في حال الإرادة، فبصحة الإرادة عندهم تصح المقامات كلها عليه إلا مقام المعرفة ..."[٥٣].

هذه إذن هي طريقة أهل الملامة في التربية والتزكية في صورتها العامة، وهذه الطريقة تضبطها مجموعة من الأصول التي توجّه سلوك الشيوخ والمريدين. وإذا كانت الأصول الفقهية تمثل مجموعة من الضوابط المنهجية النظرية لعملية الاستنباط، فإن أصول المسلك الملامتي وغيره من مسالك الصوفية تمثل أسس الآداب التي توجّه السلوك، وتضبط عملية تزكية النفس في تخليها عما هو مذموم من الرياء وسائر السيئ من الأخلاق، وفي تحليها بما ممدوح من سمات الإخلاص وسائر الحسن من الأخلاق.

٥١- السلمي: **أصول الملامتية**، ص ١٤٥. وفي النص شيء من الخلل جبرته من نشرة أبي العلا عفيفي، ص ١٠٣.

٥٢- وبعضهم يسمي ما يريه الشيوخ للمريدين من ذلك رياءً من باب المجاز، فيقال عندئذ: رياء الشيوخ خير من إخلاص المريدين. وهذا يعترض به عليهم من لا يفهم ويقول: الرياء مذموم على كل حال؛ فلا يقدم أبداً على الإخلاص.

٥٣- السلمي: **أصول الملامتية**، ص ١٤٢. وقارنه بنشرة أبي العلا عفيفي، ص ٨٧، ٨٨.

وقد جمع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي منها ما بلغ الدكتور عفيفي في ترقيمه بنشرته خمسة وأربعين أصلاً، وهي مصدرة في الأغلب بقول السلمي: "ومن أصولهم"(٥٤). وسقط من نشرة الدكتور الفاوي بضعة أصول، وجاء فيها شيء من المخالفة في ترتيب بعض الأصول ودخول بعض شروحها في بعض(٥٥)، وكان عدد الأصول فيها ـ كما رقَّمته ـ ثلاثةً وأربعين، ولقد بلغت عندي ـ بعد النظر في النشرتين وعقد المقارنة الدقيقة بينهما ـ ثمانية وأربعين أصلاً.

٥٤- انظر أبا العلا عفيفي: **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة**، ص ٩٨ -١١٩.

٥٥- من ذلك أنه سقط من نشرة الشيخ الفاوي الأصول من رقم ٢٨ - ٣٣ في نشرة الشيخ عفيفي، ص ١١٦، ١١٧. وتقدم في نشرة الفاوي عدد من الصفحات على موضعها؛ فراجع نشرته، ص ١٤٤ - ١٥٢. وقارن ذلك بنشرة عفيفي، ص ٩٠-١٠١. ومن ثم تجد أن الأصل الأول في نشرة الفاوي، ص ١٤٧، هو في الحقيقة الأصل التاسع في نشرة عفيفي، ص ١٠٤.

وقد يكون الصواب في نشرة الفاوي كما حدث في ضبطه لأصل مخالفة النفس، ص ١٤٩، والخلل في نشرة عفيفي، ص ٩٨.

والحق أن رسالة **أصول الملامتية** للسلمي بحاجة إلى طبعة جديدة تعتمد على ما سبق وتصحح ما وقع فيه من أخطاء؛ فأبو العلا عفيفي اعتمد في نشرته على مصورة نسخة برلين، ولم يستوعب مقارنتها بنسخة القاهرة في كل المواضع؛ فسقط منه في صفحة ٩٢ عبارة أحد الشيوخ عن بيان أضر شيء يحل بأهل طريق الملامة "قال: قلة بصيرته بعيوبه ورضاه من نفسه بما هو فيه". وذلك وارد في نشرة الفاوي، ص ١٥٤. وسقط منه أصل ترك الانتصار للنفس والانتقام لها، ص ١٠٠، وهو الأصل التاسع في نشرة الفاوي، ص ١٥١. والفاوي اعتمد في نشرته على نسخة القاهرة التي تضم أصول الملامتية وغلطات الصوفية، ولم يكلف نفسه عناء مقارنتها بنشرة عفيفي السابقة، ولو فعل ذلك لتجنب الخلط الذي سبقت الإشارة إلى طرف منه. وفي النشرتين معا مواضع كان بالإمكان تلافي الخطأ فيها بالمقارنة الدقيقة بين نسختي برلين والقاهرة.

ويضاف إلى ذلك أن الشيخين لم يبذلا جهداً يذكر في مجال تخريج ما أورده السلمي من الأحاديث النبوية والآثار. ولو فعلا ذلك لأغناهما في تصحيح ما صحف من ألفاظها؛ مثل حديث "المتصنع بما لم يعط كلابس ثوبي زور". ص ١١١ من نشرة عفيفي، ص ١٦٦ من نشرة الفاوي. ولفظة "المتصنع" تصحيف "المتشبع"، والحديث متفق عليه أخرجه البخاري ومسلم من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور". أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل وما يُنهى من افتخار الضرة. وأخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب اللباس، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط، حديث رقم ٢١٣٠. وأخرجه أيضاً من حديث أم المؤمنين السيدة=

وقد كانت هذه الأصول في جملتها ـ كما ذكر الدكتور عفيفي ـ كافيةً في التمييز بين مسلك أهل الملامة وغيره من مسالك الصوفية، كما أنها وضعت حداً فاصلاً بين الملامتية الأوائل وبين أهل الإباحة والتحلل من الشريعة، الذين اقترن باسم الملامتية عبثُهم بأمور الدين والتراخي في العبادات والمباهاة بالفجور والمعاصي(٥٦).

ولقد قام الشيخ السلمي في بيانه لكثير من هذه الأصول بذكر مصادرها من آي القرآن الكريم، ومن السنة النبوية بأخبار قمت بتخريجها، فوجدت أكثرها صحيحا ثابتا وبعضها حسنا صالحا؛ فإن كان خلاف معه ففي وجه الاحتجاج بها لا في صلاحيتها للاحتجاج في هذا الباب من المعاملة.

عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور". حديث رقم ٢١٢٩. والمتشبع بمعنى المتزيّن، وقد تتبعت طرق الحديث فوجدته هكذا، وقد أخرجه الإمام أحمد في مسند عائشة، ٩٠/٦، بلفظ "ومن تشبع بما لم ينل؛ فهو كلابس ثوبي زور". وروي بلفظ: "ومن تحلى بباطل؛ فهو كلابس ثوبي زور". كما أخرجه الترمذي في **سننه** من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وحسّنه، ٣٧٩/٤، وابن حبان في **صحيحه**، ٢٠٤/٨.

وكذلك ما جاء في نشرة عفيفي، ص ١١٤، في الدلالة على ستر عيوب الناس، وهو مما سقط في نشرة الفاوي .. قال: وأصلهم في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لصفوان: "هلا سترته بردائك فكان خيراً لك". وهذا في قصة ماعز بن مالك، والصواب أن النبي قال لرجل من أسلم يقال له هزال: "يا هزال لو سترته بردائك لكان خيراً لك". أخرجه الإمام مالك في **الموطأ**، ٨٢١/٢ عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب مرسلاً. وقال ابن عبد البر في **التمهيد**، ١٢٥/٢٣: "وهذا الحديث لا خلاف في إسناده في **الموطأ** على الإرسال كما ترى وهو يستند من طرق صحاح". فأسنده من طريق الليث عن يحيى بن سعيد عن يزيد بن نعيم عن جده هزال، وعن محمد بن المنكدر عن هزال. وأسنده من طريق وكيع قال: حدثنا هشام بن سعد قال: حدثني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه. وأسنده من طريق شعبة عن يحيى بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن ابن هزال عن أبيه.

وقد أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ٢١٦/٥، ٢١٧ من طرق منها طريق وكيع وطريق شعبة. وأخرجه الحاكم في **المستدرك على الصحيحين**، ٣٦٣/٤ من طريق شعبة، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

٥٦- راجع عفيفي: **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة**، ص ٦.

وقد أورد الضعيف الذي قد يعده بعض أهل العلم بالحديث موضوعا، وفي صحيح الأخبار وحسانها ما يغني عنه في الدلالة على أصلين اثنين فقط[٥٧].

٥٧- **الموضع الأول**: ما أورده في دلالة أصل ترك الاشتغال بعيوب الناس شغلا بما يلزمهم من عيوب أنفسهم، ص ١١٣ من نشرة عفيفي، ص ١٦٨من نشرة الفاوي؛ حيث استدل بخبر "طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس". قال العلامة المناوي في **فيض القدير**، ٢٨١/٤، رواه الديلمي في **الفردوس** عن أنس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: طوبى إلخ. ورواه العسكري عنه أيضاً وعدّه من الحكم والأمثال، ورواه أيضاً أبو نعيم من حديث الحسين بن علي، والبزار من حديث أنس أوله وآخره، والطبراني، والبيهقي وسطه الحديث. قال الحافظ العراقي: وكلها ضعيفة. وفي **كشف الخفاء**، ٥٩/٢ قال الحافظ العجلوني: رواه الديلمي عن أنس مرفوعا...، وفي الباب عن الحسن بن علي وأبي هريرة. قال في **التمييز**: وأخرجه البزار عن أنس مرفوعا بإسناد حسن. لكن حديث البزار أورده الحافظ الهيثمي في **مجمع الزوائد**، ٢٢٩/١٠ وقال: فيه النضر بن محرز وغيره من الضعفاء. انتهى. فالحكم بتحسينه بعد الاعتبار.

وهذا الخبر أورده الإمام الحافظ ابن حبان البستي في **كتاب المجروحين**، ٩٧/١ في ترجمة أبان بن أبي عياش؛ مثالاً لما سمعه من كلام الحسن البصري ثم رواه عن أنس مرفوعا. فتمسّك بذلك الحافظ ابن الجوزي وحكم عليه بأنه موضوع، ورأى أن سائر طرقه الأخرى أوهى وأضعف مما يؤخذ به في الاعتبار.. قال ابن الجوزي في **الموضوعات**، ١٧٩/٣: والمعروف أن هذا الحديث من حديث أبان عن أنس؛ فقد سرقه منه قوم. قال أبو حاتم بن حبان: هذا الحديث مما سمعه أبان عن الحسن، فجعله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يعلم، ولعله قد روى عن أنس أكثر من ألف وخمسمائة حديث، ما لكبير شيء منها أصل يرجع إليه.

وأيا ما كان حكم هذا الخبر؛ فقد أغنى عنه في هذا الموضع ما أخرجه الإمام البخاري في **الأدب المفرد**، ص ٢٠٧، وابن حبان في **صحيحه**، ٧٣/١٣ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذل أو الجذع في عين نفسه!!". قال البخاري: قال أبو عبيد: الجذل الخشبة العالية الكبيرة. وقال الشيخ الألباني في **السلسلة الصحيحة**، ٤٢/١ بعد ذكر طرق الحديث: رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح ولا علة فيه؛ فهو حديث صحيح.

والموضع الثاني: ما أورده في دلالة أصل اتقاء فراسة المؤمنين بخبر "اتقوا فراسة المؤمن". ورد ذكره في نشرة عفيفي، ص ١١٥، وخلت من ذكره في هذا الأصل نشرة الفاوي، ص ١٦٩. وقد أخرجه الترمذي في **سننه**، ٢٩٨/٥ من حديث أبي سعيد الخدري. ورواه الهيثمي في **مجمع الزوائد**، ٢٦٨/١٠ من حديث أبي أمامة وعزاه إلى الطبراني وقال: إسناده حسن.

وقد تكلم الحافظ ابن الجوزي عنه في **الموضوعات**، ١٤٥/٣-١٤٨. لكن تعقبه الحافظ السخاوي في **المقاصد الحسنة**، ص ١٩؛ فذكر موارد طرق الحديث عن أبي سعيد الخدري وأبي أمامة وثوبان وابن عمر وأبي =

وكان يذكر هذه الأخبار مضمنة في روايته لأقوال شيوخ الملامتية، وأحياناً يقول من عند نفسه: وأصلهم في ذلك كذا وكذا(٥٨). على أن كثيراً من الأصول التي ساقها السلمي يمكن جمعها تحت أصل واحد، فلا يكاد يخرج شيء منها عن أن يكون له مصدر يرجع فيه الملامتي إلى الكتاب والسنة على نحو ما. وقد يكون بعض الأصول تعبيراً صريحاً عن ذلك، كما في الأصل التالي: "أصل

= هريرة مرفوعا، وعن أبي الدرداء موقوفا، ثم قال: وكلها ضعيفة وفي بعضها ما هو متماسك لا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع. انتهى. وفي **تذكرة الموضوعات**، ١٩٥/١ علق الشيخ الفتني على ما ذهب إليه الصاغاني من الحكم بوضعه، وما ذهب إليه صاحب **اللآلئ** من أنه لا يصح؛ فقال: "حسن صحيح؛ فإن الضعفاء في طرقه متبوعون وبعض طرقه سالم عنهم، مع أن له شاهداً عن أنس". وذكره الشيخ الألباني في **ضعيف سنن الترمذي**، ص ٣٨٧، وفي **السلسلة الضعيفة**، ٢٩٩/٤؛ فانتهى إلى القول بأن الحديث ضعيف لا حسن ولا موضوع.

وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة ما يغني عن ذلك في هذا الموضع؛ فمن الصحيح الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، كتاب الرقاق، باب التواضع. وفيه "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...". ومن الحسن ما أخرجه الطبري في **تفسيره**، ٤٦/١٤، وأخرجه البزار، والطبراني في **الأوسط**، كلهم من طريق أبي بشر المزلق، عن ثابت البناني، عن أنس مرفوعاً "إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم". قال الهيثمي في **مجمع الزوائد**، ٢٦٨/١٠: إسناده حسن. وذكره الشيخ الألباني في **السلسلة الصحيحة**، ٤٣٧/٢ رقم ١٦٩٣؛ فبين موارد تخريجه ثم قال: "وهذا إسناد حسن رجاله ثقات؛ غير أبي بشر هذا، واسمه بكر بن الحكم التميمي. وثّقه أبو عبيدة الحداد، وأبو سلمة التبوذكي، وسعيد بن محمد الحربي، وابن حبان. ولم يضعفه أحد غير أن أبا زرعة قال: شيخ ليس بالقوي. قلت: ومع أن هذا ليس جرحا قويا، فهو غير مفسر؛ فلا يقدم على توثيق من ذكرنا...، وقول الذهبي في ترجمة أبي المزلق: روى خبراً منكراً...، ثم ذكره. غير مقبول منه؛ إلا أن يعني أنه تفرَّد به، فذلك لا يضرُّ في ثبوته لقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: ليس الحديث الشاذ أن يروي الثقة ما لم يرو الناس، وإنما هو أن يروي ما يخالف الناس. وراوي هذا الحديث لم يخالف فيه أحدا؛ بل الحديث المشهور يؤيده "اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله". وهو إن كان ضعيف الإسناد من جميع طرقه كما بينته في **الضعيفة**، ١٨٢١؛ فلا أقل من أن يصلح شاهداً لهذا، ولا عكس. فتأمل". ولعله يريد أن أبا بشر المزلق صالح للاعتبار ولتقوية روايته بالشواهد، وأن الرواة الضعاف في طرق الحديث الآخر غير صالحين للجبر. وذلك فيه نظر إلا إذا ثبت أنهم متهمون بالكذب والوضع الصريح، وهو بعيد في جملة طرقه. وإذا فرضنا ثبوته؛ فكيف تصلح رواية الكذاب الوضاع في الاعتبار؟!

٥٨- راجع الأصول التالية من نشرة عفيفي: ٢، ٤، ٦، ٨، ١١، ١٢، ١٤، ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٣، ٣٦.

العبودية شيئان: حسن الافتقار إلى الله عز وجل وهذا من باطن الأحوال، وحسن القدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي ليس للنفس فيه نفس ولا راحة"[٥٩].

ولو أتيح للدكتور عفيفي خاصة أن يهتمَّ بهذا الأمر؛ لأعفاه ذلك من البحث عن أساس نظري زرادشتي فارسي لنظرة الملامتية للنفس الإنسانية، ولرؤيتهم للفتوة والإيثار. وقد يكون لتراث البيئة الفارسية في نيسابور أثر في توجيه فهم القوم للنصوص الدينية والعمل بها على نحو ما؛ لكننا في الكلام عن المصدر والأساس والمبدأ نميل إلى أن أهل مكة أدرى بشعابها، والواجب النظر أولا فيما قدَّموه على أنه أساس ومصدر، وأحسب أن هذا المسلك أمثل من الفرض المجرد أو التخيل أو محاولة الاستنتاج. قال الدكتور عفيفي: "فإذا تكلمنا عن الأسس النظرية للمذهب الملامتي، كان ذلك محض استنتاج من جانبنا بنيناه على ما لمسناه من روح عامة انصبغت بها تعاليم الملامتية وأقوالهم ...، ويخيل إليَّ أن الأساس النظري العام الذي يقوم عليه المذهب الملامتي، هو التشاؤم الذي نظر به شيوخ هذه الفرقة إلى النفس الإنسانية، وبنوا عليه مذهبا كاملا في تذليلها وتحقيرها ولومها واتهامها، وحرمانها من كل ما ينسب إليها من علم أو عمل، أو حال أو عبادة. وهي وجهة نظر قد يكون للبيئة الزرادشتية في فارس أثر فيها، وهي المبدأ الذي أوحى إلى رجال الملامتية بكل ما ذكروه من أقوال، وما وضعوه من قواعد"[٦٠].

ولا أدري كيف ذهب الدكتور عفيفي إلى هذا مع أن الملامتي لا يتشاءم من النفس الإنسانية بإطلاق، بل يتهم نفسه الأمّارة فحسب ليمحص الإخلاص لله الواحد، وهو يحسن الظن بنفوس الآخرين من عباد الله؛ فهل كان زرادشتية فارس على هذه الشاكلة؟!

ولقد تنبه الدكتور عفيفي في كلامه عن "فلسفة الملامتية في النفس" إلى أن الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي قد استعمل ألفاظ "الروح والسر والقلب والنفس والطبع"، وأنه يرتبها على هذا النحو من حيث الأفضلية، وبين أن تلميذه القشيري قدم في شرح ألفاظ الصوفية في رسالته "السر" باعتباره محل المشاهدة على "الروح"، وأن هذا وفاق أقوال بعض الملامتية أنفسهم؛ لكن فاته أن السلمي فيما أورده من أصول القوم، ذكر "الروح" وقدمها باعتبارها محل المشاهدة أيضاً؛ فالمخالفة في إطلاق اللفظ لا في رتبة المعنى. ولست في هذا الموضع منشغلا بذلك[٦١]؛ لكن يشغلني أن الدكتور

٥٩- السلمي: **أصول الملامتية وغلطات الصوفية**، ص ١٦٦. وانظر نشرة عفيفي، ص ١١١.

٦٠- عفيفي: **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة**، ص ٤٧، ٤٨.

٦١- انظر كلام السلمي، ص ١٠٤ من المصدر السابق، وسيأتي في ذكر أصول القوم بمشيئة الله تعالى.

عفيفي قد نظر بالفعل إلى معاني هذه الألفاظ باعتبارها جملة القوى النفسية للإنسان وأنها لطائف مودعة فيه، وأن تصنيفها بهذه الصورة له علاقة بكلام الصوفية في معرفة الله تعالى أو مشاهدته، وترقيهم في مقامات أهل الطريق(٦٢).

ولو أن الدكتور عفيفي رجع النظر فيما أخذه من كلام القشيري أو أتيح له النظر في كلام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في **إحياء علوم الدين**، وما جاء بعد ذلك من كلام صوفية الطرق مما لعله قد نشر وخضع للدرس الأكاديمي بعد زمان كتابة الدكتور عفيفي عن الملامتية، لرأى أن هذه المعاني جميعاً رتب في النفس الإنسانية، وأن هذه الألفاظ أطلقت بإزاء ما يكون لكل مرتبة من العلم والدعوة إلى العمل، وأن النفس المذمومة عند القوم ليست إلا الأمارة التي تميل إلى الشهوات والغرائز المركوزة في رتبة الطبع، والقلب الذي يطلق على مركز العلم في بعض كلامهم يطلق هنا على رتبة ما يتقلب بين مطالب الأمارة وما ينشغل به العبد مع ربه في مرتبة السر من ملاحظة آلائه عليه، وأن الروح أو محل المشاهدة لما ينشغل بالله وحده(٦٣). وسواء كانت هذه المعاني مراتب للطيفة واحدة أو كانت لعدد من اللطائف، فهي جملة ما وراء البدن من الإنسان. وقد تكلم قوم من متأخري الصوفية عن نفوس سبعة لها مراتب تربية المريدين، ومعرفة المقامات والأحوال الجارية عليهم، والأذكار التي يشتغلون بها:

١- النفس الأمّارة وصفاتها: البخل والحرص والأمل والكبر والشهرة والحسد والغفلة. وذكرها: لا إله إلا الله.

٢- النفس اللوّامة وصفاتها: اللوم والفكر والقبض والعجب والاعتراض. وذكرها: الله.

٣- النفس الملهمة وصفاتها: السخاوة والقناعة والعلم والتواضع والتوبة والصبر وتحمل الأذى. وذكرها: يا هو.

٤- النفس المطمئنة وصفاتها: الجود والتوكل والحكم والعبادة والشكر والرضا. وذكرها: يا حي.

٥- النفس الراضية وصفاتها: الزهد والإخلاص والورع والوفاء وترك ما لا يعني. وذكرها: يا واحد.

٦٢- انظر: المصدر السابق، ص ٥٢.

٦٣- راجع كلام القشيري عن معاني النفس والروح والسر: **الرسالة القشيرية**، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، مطبعة أمير، قم، إيران، ط ١، ١٣٧٤هـ، ص ١٦٥- ١٦٧. وراجع كلام الغزالي عن معاني النفس والروح والقلب والعقل؛ خاصة المعنى الثاني للنفس: **إحياء علوم الدين**، ٣/٤، ٥.

٦- النفس المرضية وصفاتها: حسن الخلق وترك ما سوى الله واللطف بالخلق والتقرّب إلى الله والتفكر. وذكرها: يا عزيز.

٧- النفس الكاملة وصفاتها: كل ما مضى ذكره من الصفات. وذكرها: يا قهار(٦٤).

فهل كان شيوخ الملامتية في موقفهم المتشائم من النفس ـ على حد تعبير الدكتور عفيفي ـ يقصدون كل هذه المعاني من نفس الإنسان؟! وهل كان زرادشتية الفرس ينظرون إلى النفس أو إلى ما وراء البدن، على أنه رتب منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم، على نحو يقاربه ما ذهب إليه الصوفية المسلمون عامة والملامية خاصة؟!

ولقد اجتهد الدكتور عفيفي رحمه الله في تعزيز نظرته للملامتية برد الأصول التي ذكرها الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي إلى أصلين اثنين فقط: أولهما: التشاؤم من النفس. والثاني: الفتوة أو الإيثار للغير، سواء كان إيثاراً لله تعالى أو إيثاراً للخلق. قال: "وإلى هذين الأصلين يمكننا أن نردّ جميع "الأصول" التي ذكرها السلمي للملامتية بطريق مباشر أو غير مباشر، وعنهما صدر كلام الملامتية في المسائل الرئيسية الآتية:

١- كلامهم في النفس وشريتها وصلتها بالقلب والسر.

٢- كلامهم في محاربة النفس وظواهرها؛ خاصة الرياء والعجب والشهرة، وما يتصل بهذه الصفات من مسائل متعلقة بالحياة الصوفية، كمسألة الزي والدعاوى الصوفية والأحوال والسماع والفقر والتوكل، أو مسائل أخلاقية كمسألة أفعال العبد وإرادته ومعاني الجرية والعبودية، أو مسائل إلهية كمسألة الشرك، أو مسائل تتعلق بالحياة العملية كالكسب والقعود للناس في الوعظ والتذكير. ومن أقوالهم في هذه المسائل كلها تتألف آداب الطريق الملامتي عندهم.

٣- كلامهم في طرق محاربة النفس وظواهرها التي أهمها الزجر والبخع والتأنيب والاتهام، وكل ما يمكن وضعه تحت العنوان العام الذي يطلقون اسم "الملامة" عليه.

٤- كلامهم في الغاية من الطريق، وهي التحقق في مقام الإخلاص"(٦٥).

٦٤- تجد هذا عند القادرية والخلوتية وعند السنوسية من الأحمدية الإدريسية وغيرهم، وراجع ما كتبه ونقله عن هذه النفوس وأذكارها الشيخ صالح الجعفري: **المنتقى النفيس في مناقب قطب دائرة التقديس**، دار جوامع الكلمة،القاهرة، مصر، ط ٤، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ١١٣-١٢١. وراجع أيضاً موقع الطريقة القادرية على شبكة الإنترنت: http://www.alkadria.com/ar/modules/mydownloads/

٦٥- عفيفي: **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة**، ص ٤٨، ٤٩.

ولئن سلمت للدكتور عفيفي في ردّ أصول الملامتية إلى أصلين فقط، فهما عندي ـ في ضوء المعرفة بالمنهج العام للصوفية في التخلية والتحلية-: تعرف أدواء النفس وآثارها في إفساد العمل، وبيان كيفية العلاج لتحقيق كمال الإخلاص. وهذا العلاج له جانبان: أحدهما سلبي يتحقق في اتهام النفس ومخالفتها وتحقير شهواتها، والثاني الإيجابي هو الفتوة أو الإيثار بنوعيه اللذين ذكرهما الدكتور عفيفي. وكلامهم في مراتب الروح والسر والقلب والنفس والطبع لا يخرج عن تنزيل التشخيص والعلاج على مجاهداتهم وتربيتهم للمريدين، وبيان تطبيق ذلك على ترقي مقاماتهم وأحوالهم.

فالأصول التي ترجع إلى تعرف أدواء النفس وآثارها في إفساد العمل، يتأسس الكلام فيها على مراعاة النفس في العمل أولا، والعجب بما كان منها ثانيا، والمراءاة بالسعي في إظهاره والتباهي به ثالثا، وهذا يقود في المعاملة مع الله تعالى إلى حسبان أن عمل النفس مستوجب للعطاء، وفي المعاملة مع الخلق يؤدي إلى التكبر والاستعلاء والنظر في عيوب العباد. وأساس ذلك كله الغفلة عن الحق. ومن الأصول الدالة على ذلك فيما ذكره الشيخ السلمي:

١- الغفلة هي التي أطلقت للخلق النظر في أفعالهم وأحوالهم، ولو عاينوا أمانا من الحق لاستحقروا ما يبدو منهم في جميع الأحوال، واستصغروا ما لهم في جنب ما عليهم(٦٦). وهذه غفلة العباد، وقد تكون الغفلة منّة ورحمة من الرب على من استوفى أوقاته في المجاهدة والمعاملة، فإذا أراد الله به رفقا أو رفاهية أورد عليه غفلة يستريح فيها(٦٧).

٢- كل عمل وطاعة وقعت عليه رؤيتك، واستحسنته من نفسك، فذلك باطل(٦٨). والكلام هنا لا تعلق له بأحكام الفقهاء في كون العمل مجزئا صحيحا أو في نفي ذلك؛ بل الكلام هنا في كونه مقبولا، وهذا شيء وراء الصحة. ولذلك روى السلمي في بيانه بإسناده عن علي بن الحسين رضي الله عنهما، قال: كل شيء من أفعالك اتصلت به رؤيتك فذلك دليل أنه لم يقبل منك، لأن القبول مرفوع مغيب عنك، وما انقطع عنه رؤيتك فذلك دليل القبول.

٣- النظر إلى العمل والعجب به من قلة العقل ورعونة الطبع. كيف تفتخر بما ليس لك فيه شيء؟!(٦٩). والإشارة هنا إلى أن الأفعال في أصل وجودها لله القائل: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ**﴾

٦٦- نشرة عفيفي، ص ١٠٠. ونشرة الفاوي، ص ١٥١.

٦٧- نشرة عفيفي، ص ١١٥. والكلام عن غفلة الرحمة غير موجود في نشرة الفاوي.

٦٨- نشرة عفيفي، ص ١١٠. ونشرة الفاوي، ص ١٦٤.

٦٩- نشرة عفيفي، ص ١١١. ونشرة الفاوي، ص ١٦٦.

(الصافّات: ٩٦). ويكتسب العبد الصالحات منها بتوفيق الله وهدايته. والمراد التسليم لله تعالى وكمال الخضوع لمجاري قدره، دون وقوع في الجبر بمفهومه الكلامي؛ فالقوم في مبتداهم ومنتهاهم أهل مجاهدة وسعي في تغيير النفوس وتبديل أحوالها، وقد قال الشيخ الهجويري: "تجريد التوحيد بلا معاملة يكون جبرا، والموحّد يكون جبري القول وقدري الفعل؛ ليصح مسلكه بين الجبر والقدر"[٧٠].

٤- كثرة الحركة في الأسباب من علامة الشقاوة، والتفويض والسكون تحت مجاري القدر من علامات السعادة[٧١].

٥- الفقر سر لله عند عبده، فإذا ظهر عليه فقره منه، فقد خرج عن حد الأمناء إلا أن يكون فقره إليه[٧٢].

٦- التزين بشيء من العبادات في الظواهر شرك، والتزين بشيء من الأحوال في الباطن ارتداد[٧٣]. والكلام هنا ليس عن الشرك المخرج من الملة، ولا في الردة عن الدين، بل في الرياء والعجب والادعاء، وكل ما يخالف حقيقة الإخلاص، ويخرج عن طريق القبول عند الحق. وفي ذلك يقول شيخ الملامتية حمدون القصار: "الملامتي لا يكون له من باطنه دعوى، ولا من ظاهره تصنع ولا مراءاة، وسرّه الذي بينه وبين الله لا يطلع عليه صدره، فكيف الخلق؟!"[٧٤].

٧- ما ظهر من أحوال الروح للسرّ صار رياء في السر، وما ظهر من أحوال السرّ إلى القلب صار شركا في السرّ، وما ظهر من القلب إلى النفس صار هباءً منثوراً، وما أظهره الإنسان من أفعاله وأحواله فهو من رعونة الطبع ولعب الشيطان به. والذي يحقرها يكون في زيادة، ولا يزال يترقى في الأحوال، حتى يعلو حال السرّ إلى حال الروح والقلب لا يشعر، ويترقى حال القلب إلى حال السرّ والنفس لا تشعر، ويترقى حال النفس إلى حال القلب والطبع لا يشعر بذلك[٧٥].

٧٠- الهجويري: **كشف المحجوب**، ٢١١/١.

٧١- نشرة عفيفي، ص ١١٥. وهو غير موجود في نشرة الفاوي.

٧٢- نشرة عفيفي، ص ١١٣. ونشرة الفاوي، ص ١٦٧.

٧٣- نشرة عفيفي، ص ٩٨. ونشرة الفاوي، ص ١٥٠.

٧٤- نشرة عفيفي، ص ١١٩. ونشرة الفاوي، ص ١٧٤.

٧٥- نشرة عفيفي، ص ١٠٠. ونشرة الفاوي، ص ١٥١.

٨- أقل العبيد معرفة بربه عبد ظن أن فعله وطاعته تستجلب عطاءه، وأن عطاءه يقابل فعله. ولا يصح للعبد عندهم شيء من مقام المعرفة حتى يعلم أن كل ما يرد عليه من ربه من جميع الوجوه فضل من غير استحقاق(٧٦).

٩- ومن أصولهم ألا يبصر الإنسان بعيب أخيه، على ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "هلا سترته بردائك فكان خيراً لك". وأن يترك الاشتغال بعيوب الناس، ويشتغل بعيوب نفسه، ويقيم على إصلاحها محاذراً شرها، ومديما تهمتها، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس"(٧٧).

والأصول التي ترجع إلى بيان كيفية العلاج والسعي لتحقيق كمال الإخلاص يتأسس الكلام فيها على العلم بالنفس وكسرها بالمخالفة والاتهام بالتقصير، وعدم الاغترار بالمنن وإجابة الدعاء حذر المكر والاستدراج، وترك الانتصار لها وقبول ما فيه تذليلها لا تعزيزها، وحفظ القلب من مطالبها ولو بالدعاء إلا عند الاضطرار، وإماتة حظوظها في لذة الطاعات، وإخماد شهوتها في الظهور بمعالم الأتقياء في أزيائهم وافتقارهم إلا أن يكون سراً، وفي أحوالهم كالبكاء عند السماع والذكر، وكالكلام في دقائق العلوم والإشارات.

كل ذلك مع التزام الشرع ودوام الذكر الخفي، وحسن الظن بالله والثقة به وتعظيم ما عنده، ومع حسن الظن بعباده، والتماس الأعذار لهم وترك تعييرهم، ومقابلة الجافي منهم بالحلم والاحتمال، والسعي في خدمتهم، وترك الطمع فيما جعله الله بأيديهم، والاستغناء عنهم، وكراهية التعظيم منهم وبذل الخدمة.

وجميع ذلك لا يتم إلا بأمور ثلاثة: أولها: حسن الافتقار إلى الله تعالى. والثاني: حسن القدوة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والثالث: التأدب بإمام وشيخ رائد يرجع إليه المريد السالك في جميع ما يقع له من العلوم والأحوال؛ فمن لم يتأدب بأستاذ فهو بطال(٧٨).

ومن الأصول الدالة على ذلك فيما ذكره الشيخ السلمي:

١- من كثر علمه قل عمله، ومن قل علمه كثر عمله.

٧٦- نشرة عفيفي، ص ١١٤. ونشرة الفاوي، ص ١٦٨، ١٦٩.

٧٧- انظر نشرة عفيفي، ص ١١٣، ١١٤. ونشرة الفاوي، ص ١٦٧، ١٦٨. والحديثان سبق تخريجهما.

٧٨- انظر نشرة عفيفي، ص ١٠٨، ١١١. ونشرة الفاوي، ص ١٦٤، ١٦٦.

وفي بيان هذا الأصل أورد السلمي قول أبي حفص النيسابوري: من كثر علمه استقل كثير عمله لعلمه بتقصيره فيه. ومن قل علمه استكثر قليل عمله؛ لقلة رؤية التقصير فيه والعيب(٧٩).

٢- سماع الأذن يجب أن لا يغلب مشاهدة البصر. أي أن ما يسمعه العبد بأذنه من الثناء عليه بحسن الظن، يجب أن لا يغلب ما يشاهده ويعلمه من تقصير نفسه(٨٠).

٣- حسن الظن بالله غاية المعرفة، وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها(٨١).

٤- مخالفة النفس واتهامها في كل الأحوال، وترك الانتصار والانتقام لها، وقلة الرضا عنها والميل إليها بحال(٨٢).

٥- كتمان الآيات والكرامات، والحزن عند إجابة الدعاء، فالنظر لذلك بعين الاستدراج والبعد عن سبيل الحق(٨٣).

٦- قبول الرزق إذا كان فيه ذل، وردّه إذا كان فيه عزة؛ لأنه ليس في العبودية تعزز(٨٤).

٧- كراهة الدعاء إلا للمضطر الذي لا يجد لنفسه وجها ولا متاعا ولا مقاما عند الله تعالى ولا عند الخلق، فيكون رجوعه إلى ربه بانكسار وضعف، دون أن يقدم أحواله وأفعاله على حد الإفلاس والتخلي من كل شيء(٨٥).

٨- مخالفة لذة الطاعات فإن لها سموما قاتلة. وذكر السلمي أن الانشغال بلذة الطاعة وتعظيمها والنظر إليها بعين الرضا مسقط عن درجة الأكابر، وأحسب أن ذلك لما يتولد عن هذه النظرة من العجب وإكبار النفس(٨٦).

٩- ترك مظاهر الفقر طول الحياة، وإظهار الغنى والاستغناء؛ فلا يعرف الفقر إلا بعد موت الفقير. قال أبو حفص النيسابوري: "إن كنت فتى، فيكون بيتك يوم موتك موعظة للفتيان"(٨٧). وكان

٧٩- نشرة عفيفي، ص ١١٦. ونشرة الفاوي، ص ١٧٠.

٨٠- السابق نفسه.

٨١- نشرة عفيفي، ص ١٠٨. ونشرة الفاوي، ص ١٦٣.

٨٢- ذكر السلمي هذا في عدة أصول؛ فانظر: نشرة عفيفي، ص ٩٨، ١٠٠. ونشرة الفاوي، ص ١٤٩، ١٥١.

٨٣- ذكر السلمي هذا في أصلين؛ فانظر: نشرة عفيفي، ص ١١٧، ١١٨. ونشرة الفاوي، ص ١٧١، ١٧٣.

٨٤- ذكر السلمي هذا في أصلين؛ فانظر: نشرة عفيفي، ص ٩٩، ١١٨. ونشرة الفاوي، ص ١٥٠، ١٧٣.

٨٥- نشرة عفيفي، ص ١١٤. وهو غير موجود في نشرة الفاوي.

٨٦- انظر: نشرة عفيفي، ص ١٠٥. ونشرة الفاوي، ص ١٦٠.

٨٧- نشرة عفيفي، ص ١١٧، ١١٨. ونشرة الفاوي، ص ١٧٢.

أبو حفص إذا دخل إلى البيت يلبس المرقعة والصوف وغير ذلك من ثياب القوم، وإذا خرج إلى الناس لبس الحسن، وكان يرى لبس القوم وزيهم فيما بين الناس رياء وشبهة وتصنعا(٨٨).

١٠- ترك الكلام في دقائق العلوم والإشارات، وقلة الخوض فيها وإظهارها عند غير أهلها، والرجوع إلى حد الأمر والنهي(٨٩).

١١- ترك البكاء عند السماع والذكر وغير ذلك، وملازمة الكمد فإنه أحمد للبدن. وكانوا يرون أن التلذذ بالبكاء هو ثمن البكاء، وكذلك منعوا الحركة والقيام لتمام الهيبة(٩٠).

١٢- وإذا قهرت النفس وكسرت حدتها، فالأصل عندئذ ذهاب النفس، أي الذهاب عن رؤيتها ورؤية حظوظها(٩١).

١٣- تعظيم ما لله عندهم من جميع الوجوه، وتصغير ما يبدو منهم من الموافقات والطاعات، وملازمة حدهم مع الله من غير قصد، من استنباط في قول أو إظهار ما يجب كتمه من الأحوال(٩٢).

١٤- الأذكار أربعة: ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالسرّ، وذكر بالروح. فإذا صح ذكر الروح سكت السرّ والقلب واللسان عن الذكر، وذلك ذكر المشاهدة. وإذا صح ذكر السرّ سكت القلب واللسان والروح عن الذكر، وذلك ذكر الهيبة. وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر، وذلك ذكر الآلاء والنعماء. وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر، وذلك ذكر العادة(٩٣).

١٥- حفظ القلب مع الله بحسن المشاهدة، وحفظ الوقت مع الخلق بحسن الأدب، وكتمان ما يظهر من الموافقات إلا ما لا بد من إظهاره(٩٤).

١٦- رؤية تقصير النفس مع رؤية عذر الخلق فيما هم فيه(٩٥).

١٧- قضاء الحقوق وترك اقتضاء الحقوق(٩٦).

٨٨- انظر: نشرة عفيفي، ص ١٠٨. ونشرة الفاوي، ص ١٦٣.

٨٩- ذكر السلمي هذا في أصلين؛ فانظر: نشرة عفيفي، ص ١١٢، ١١٦. ونشرة الفاوي، ص ١٦٦، ١٧٠.

٩٠- ذكر السلمي هذا في أصلين؛ فانظر: نشرة عفيفي، ص ١١٢، ١١٧. ونشرة الفاوي، ص ١٦٦، ١٧٢.

٩٠- نشرة عفيفي، ص ١٠٧. ونشرة الفاوي، ص ١٦٣.

٩٢- نشرة عفيفي، ص ١٠٥. ونشرة الفاوي، ص ١٦٠.

٩٣- نشرة عفيفي، ص ١٠٤. ونشرة الفاوي، ص ١٤٧.

٩٤- نشرة عفيفي، ص ١١٠. ونشرة الفاوي، ص ١٦٥.

٩٥- السابق نفسه.

٩٦- نشرة عفيفي، ص ١١٠. ونشرة الفاوي، ص ١٥٠.

١٨- المؤمن يجب أن يكون بالليل سراجا لإخوانه، وعصا لهم بالنهار. والإشارة هنا إلى حسن عونه لهم، واشتغاله فيما يحتاجون إليه[٩٧].

١٩- كراهية أن يخدموا أو يعظموا أو يقصدوا. يقولون: ما للعبد وهذه المطالبات! إنما هي للأحرار[٩٨].

٢٠- أن توسع على أخيك من مالك ولا تطمع في ماله، وتنصفه ولا تطلب منه الإنصاف، وتتحمل منه الجفوة ولا تجفوه، وتستكثر قليل بره وتستقل ما منك إليه[٩٩].

صورة الملامتية عند السلفيين الجدد:

وإني لأرجو أن يكون فيما قدمت توضيح لمفهوم الملامة وأصول أهلها عند صوفية الإسلام، وبيان لما هو محمود منها عند القوم باتفاق، وما هو جائز بقدر الحاجة إليه في علاج ميل النفس إلى الجاه والشهرة بين الخلق، وما هو مرذول مذموم وأهله موضع تهمة وادعاء بغير حق. وبقي الكلام على صورة مذهب أهل الملامة عند خصوم الصوفية من أتباع الحركة الوهابية أو السلفية الجديدة إذا جاز التعبير، وأضرب المثال لهم بما قدمه الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي في رسالة له بعنوان **الردّ على الخرافيين**، نشرها بموقعه الخاص على شبكة الإنترنت.

وهو يرى ابتداء أن أصل التصوف هو التشيع، ويعبر عن ذلك في أسلوب يخلو من دقة المعرفة بتاريخ المذاهب، كما يخلو من وجاهة اللغة وحسن بيانها، فيقول: "أول ما وجد التصوف في صفوف الشيعة، ولذلك نجد الصلة بين التصوف و بين التشيع قوية جدًّا، ونجد أن كثيراً من الضلالات، ومن الخرافات المشتركة بين الطائفتين خرافات مشتركة بالفعل، ويجمع الطائفتين دعوى الغلو: هؤلاء غَلَوا في عليّ رضي الله عنه، وهؤلاء غلوا في الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم"[١٠٠].

وهذه الدعوى العريضة التي لا يعرفها المختصون بدراسة علم التصوف وتاريخه سبقه إليها الشيخ إحسان إلهي ظهير الباكستاني في كتابه **التصوف: المنشأ والمصادر**، حيث خصص الباب الثالث منه لبحث العلاقة بين التشيع والتصوف، وهذا الشيخ فيه هوس بشخصية عبد الله بن سبأ

٩٧- انظر: نشرة عفيفي، ص ١١٦. ونشرة الفاوي، ص ١٧٠.

٩٨- نشرة عفيفي، ص ١١٥. ونشرة الفاوي، ص ١٦٩.

٩٩- نشرة عفيفي، ص ١١٩. ونشرة الفاوي، ص ١٧٣.

١٠٠- موقع سفر الحوالي:
http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.ShowContent&ContentID=680&FullContent=1

والسبئية؛ فهو ـ عنده ـ مؤسس التشيع، وهم منشأ فتنة الخوارج(١٠١)، ثم هم الآن وأتباعهم الشيعة أصل التصوف! والشيخ إحسان يزعم أنه "يظهر لمن درس كتب التاريخ والعقائد والمسالك، وتعمق في منشأ ومولد الطوائف والنحل، أن كل فتنة ظهرت في تاريخ الإسلام، وكل ديانة طلعت من العدم إلى الوجود كان رأسها ومديرها أو منشئها ومدبّرها، واحد من الشيعة، وكذلك كان أمر الصوفية؛ فإن الثلاثة الذين اشتهروا في التاريخ الإسلامي باسم الصوفي ولقبه ـ بادئ ذي بدء ـ كان اثنان منهم من الشيعة أو متهمين بالتشيع، كما أن هؤلاء الثلاثة كلهم كانوا من موطن الشيعة آنذاك، وهو الكوفة"(١٠٢).

وهؤلاء الثلاثة هم: أبو هاشم الكوفي الصوفي (المتوفى حوالي ١٥٠هـ)، وجابر بن حيان الصوفي (المتوفى بين عامي ١٦٠ و٢٠٠هـ)، وعبدك الصوفي (المتوفى ٢١٠هـ). وأبو هاشم إن لم يكن متهما بالتشيع فقد نشأ في موطنه الكوفة، وهو زنديق معروف. أما جابر وعبدك فهما أصيلان في التشيع ولهما في الزهد أو ادعائه مذهب خاص، وعبدك فوق هذا زنديق متحلل من الشريعة(١٠٣).

والشيخ إحسان ينقل في تأكيد رأيه طائفة من أقوال المستشرقين الذين كانوا مولعين بتتبع أمثال هذه الأسماء، والتقاط المشابه والشارات في مقارناتهم بين المذاهب والملل، وإلحاقهم المتأخر بالمتقدم، ليخلص لهم أن الإسلام هرطقة مسيحية، وأنه في النظريات تابع لأهل يونان، وفي العبادات والعمليات مزيج من طقوس الشرق القديم ووثنياته. هذا ما كان يسعى إليه أكثر المستشرقين الذين اعتمد الشيخ إحسان على نصوصهم، وحاول أن يتبع منهاجهم في تحديد أصول المذاهب والملل؛ فهل كان الشيخ الباكستاني على دراية بما انتهى إليه العلامة محمد إقبال في نقد مقالات المستشرقين في مصدر التصوف ونشأته في المجتمع الإسلامي؟!

لقد قدَّم العلامة محمد إقبال معياراً للكلام عن التأثير والتأثر في مجال الفكر الإنساني يتعلق بحقيقة عقل الإنسان، ومدى قابليته لنقل الأثر الجديد، وإشاعته في مجتمعه؛ فقال: "أصبح تتبع سلسلة المؤثرات منهجا وتقليداً لدى المستشرقين، ولا ريب أن هذا التقليد ينطوي على قيمة تاريخية بالغة، بشرط ألا تصرفنا العناية به عن حقيقة أساسية، وهي أن العقل الإنساني يتمتع بفردية مستقلة، وأنه يستطيع من تلقاء نفسه ـ معتمداً على مبادئه الخاصة ـ أن يتوصل بالتدريج إلى الحقائق

١٠١– راجع إحسان إلهي ظهير: **الشيعة والتشيع**، إدارة ترجمان السنة، لاهور، ط ٢، ١٤٠٤هـ، ص ٤١.

١٠٢– إحسان إلهي ظهير: **التصوف: المنشأ والمصادر**، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، ص ٨٤.

١٠٣– المصدر السابق، ص ٨٤ – ٨٨.

التي تم كشفها عن طريق أشخاص آخرين في عصور سابقة، ولا يمكن لفكرة ما أن تستحوذ على روح شعب من الشعوب ما لم تكن ـ على نحو ما ـ ملكا خاصا لهذا الشعب.

وربما استطاعت المؤثرات الخارجية أن توقظ روح شعب من سباتها العميق، لكن تلك المؤثرات لا تستطيع أبداً أن تخلق تلك الروح من العدم"(١٠٤).

وإذا كان التصوف ما زال حيّاً في مجتمعاتنا الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وحيث وجد المسلمون، فلا بد من البحث عن مصادره فيما يميز المسلمين عن غيرهم. ويلزم عند البحث عن نشأته النظر فيما كتبه أهله الأولون؛ لنعرف من أين انتزعوه، ونتبين أطواره على أيديهم جيلا بعد جيل، وندرك ما الذي يدخل فيه وما الذي يخرج منه ويخل به؛ فهل في صوفية الإسلام الأوائل المعروفين أحد انتسب إلى أبي هاشم الكوفي أو جابر بن حيان أو عبدك الزنديق؟!!

والحق أن التصوف الإسلامي في نشأته ظاهرة سنّية خالصة، لم يعرفه الشيعة إلا في زمان متأخر في إطار توريث مهام الإمامة، ووجود الصوفية في تاريخ الإسلام يسبق انتشار فكرة نواب الإمام الغائب أو المستور بين الشيعة الإمامية، والزيود أهل توجه عقلي صرف لا محل معه لمجاهدات الصوفية ومكاشفاتهم(١٠٥).

على أن بعض المختصين بدراسة الصلة بين التشيع والتصوف من الشيعة أنفسهم يقر بأن أول جمع بينهما كان خلال القرن الثامن الهجري؛ مشيراً إلى المتكلم الشيعي بهاء الدين حيدر بن علي العبيدلي الآملي (ت ٧٩٤هـ) الذي كان ينتسب إلى سلسلة تنتهي لأبي يزيد البسطامي(١٠٦). وله كتاب **جامع الأسرار ومنبع الأنوار في أن عقائد الصوفية موافقة لمذاهب الإمامية الاثنا عشرية**(١٠٧). وقد زعم فيه ـ غير مسبوق ـ أن الصوفية هم خواص الشيعة وأن المسلمين ثلاث طبقات: أولاها: الصوفية لاختصاصهم بالأسرار الإلهية. والثانية: الشيعة. والثالثة: طبقة العوام. وأورد قائمة بأسماء شيوخ الصوفية الذين أخذوا عن الأئمة، فذكر أن الحسن البصري أخذ عن الإمام علي، وأن إبراهيم بن

١٠٤- العلامة محمد إقبال: **تطور الفكر الفلسفي في إيران**، ترجمة الأستاذ حسن الشافعي، ومحمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٨١.

١٠٥- راجع كلام حسن الشافعي عن خصائص التصوف الإسلامي: **فصول في التصوف**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٢م، ص ٤٢ – ٥١.

١٠٦- راجع مصطفى كامل الشيبي: **الصلة بين التشيع والتصوف**، دار الأندلس، بيروت، ط ٣، ١٩٨٢م، ص ١٠٤، ١٠٥.

١٠٧- المطبوع بعناية المستشرق الفرنسي هنري كوربان وعثمان يحيى، مؤسسة النشر، طهران، إيران ١٩٦٩م.

أدهم أخذ عن الإمام السجاد علي بن الحسين، وأن معروفا الكرخي أخذ عن الإمام علي بن موسى الرضا، وأن كل واحد من هؤلاء أوصل ما اقتبسه من تعاليم إلى مريديه[١٠٨].

وإذا أراد الدكتور الحوالي أن يفيد من كلام الشيخ حيدر الآملي في تأكيد دعواه أن التشيع أصل التصوف، فيلزمه أن يكون شيعياً أو على الأقل يلزمه أن يسلم للشيعة أن الإمام عليا وذريته هم واضعو التشيع والداعون إليه؛ ليحمل تدريسهم لشيوخ الصوفية على أن التشيع أصل التصوف.

ومما يؤكد تأخر ظهور التصوف بين الشيعة أن أول طريقة صوفية شيعية عرفها تاريخ الإسلام، كان ظهورها خلال القرن الثامن الهجري أيضاً، وهي الطريقة "البكتاشية" نسبة إلى مؤسسها خنكار الحاج محمد بكتاش الخراساني (ت ٧٣٨هـ). وكانت هذه الطريقة تروي سند المسلك الصوفي من محمد بكتاش إلى سيد الطائفة الجنيد بن محمد القواريري، عن السري السقطي، عن داود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وكان لها حظ من آداب الطريق الصوفي ومراتبه وطرق الذكر والمجاهدة المعروفة[١٠٩]. وتضم إلى ذلك أيضاً الانتماء لعقيدة الشيعة الاثنا عشرية، على نحو ما يظهر في الورد "البكتاشي" من ذكر التوسل بالأئمة الاثني عشر على ترتيبهم التاريخي، والتشفع بهم في الدنيا والآخرة، مع التصريح بعصمتهم جميعاً[١١٠].

وإذا كان هذا هو تاريخ ظهور التصوف عند الشيعة، فكيف يكون التشيع أصلا للتصوف الإسلامي؟! إن الدكتور سفر الحوالي لا يلبث على دعواه الأولى بضعة سطور حتى يأتي بثانية هي أعجب من الأولى، فيقول: "الصوفية ديانة قديمة، معروفة لدى الهنود، ولدى اليونان القدماء. ديانة قديمة جاءت ودخلت، وتغلغلت في الإسلام باسم الزنادقة، والزنادقة هم الذين أدخلوها في الإسلام باسم التصوف، وباسم التعبد، وباسم الزهد". فلا تدري التصوف عنده شيعي أو هندي أو يوناني أو هو مزيج من ذلك كله ومن كل ضلالة سبقت ظهور الإسلام؟!

١٠٨- راجع مصطفى كامل الشيبي: **الصلة بين التشيع والتصوف**، ص ١٠٧.

١٠٩- راجع أحمد سري دده بابا: **الرسالة الأحمدية في الطريقة البكتاشية**، مطبعة عبده وأنور أحمد، القاهرة، ط ٤، ١٩٥٩م، ص ٣٤، ٦٧، ٦٩، ٧٣، ٧٧.

١١٠- المصدر السابق، ص ٨٢ – ٩٢ وهذه الصفحات تمثل الورد البكتاشي.

والتصوف لم يكن دينا قط، بل هو في حقيقته مسلك يرجع إلى توجه إنساني في فهم الأديان، وفي ضبط حركة الإنسان في الحياة، إلى جوار توجه المقلدين وتوجه العقلانيين. وللتصوف في كل ملة خصائص تميزه وتربطه بعقائد مجتمعه وثقافته.

وإذا كان عند الهنود أو الفرس أو غيرهم صوفية، فإن سبقهم التاريخي لصوفية الإسلام لا يعني أنهم أصل لهم وسلف، إلا بقدر ما يعني سبق حمورابي وقانونيو الرومان لفقهاء الإسلام وقضاته. وكل ما يقال في بيان تميز فقهاء الإسلام وقضاته، وفي ارتباطهم بأصول ثابتة في دين الإسلام، يقال في تميز صوفية الإسلام، وفي ارتباطهم بعقيدة التوحيد وشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون نفي لوجود بعض الأخطاء من المجتهدين غير المعصومين في فهمهم وأعمالهم، ولا إنكار لظهور المترسمين من أهل الدعاوى الباطلة، وهؤلاء لهم في كل علم محل لا يقود سد الذرائع إلى إبطال الاشتغال به؛ بل يدعو حفظ الدين إلى فضح زيفهم ونفي باطلهم بالحق الذي لا يخالطه جور، والله عز وجل يقول على لسان يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَنْ نَّأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُوْنَ** ﴾ (يوسف: ٧٩).

لكن الشيخ سفر الحوالي يجمع نصوصا متفرقة من كلام البيروني فيما عقده من مقارنات بين نساك الهند وصوفية الإسلام، وكلام أبي الحسن الأشعري وأبي الحسين الملطي فيما نقلاه عن "عبدك" وطوائف من الزنادقة المتنسكين على غير شرائع الإسلام، ومن كلام للفخر الرازي عن فرق الصوفية فيوجه النظر إلى الحلولية وأمثالهم من الضالين، ويغض الطرف فيه عن المتحققين الذين وصفهم الرازي بأنهم خير فرق الآدميين؛ بل يصف الرازي بأنه متعاطف معهم، ومن كلام لعباس بن منصور السكسكي (ت ٦٨٣هـ) في كتابه **البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان**، لينتهي من ذلك كله إلى القول بأن "التصوف دين مستقل عن الإسلام، وإن دخله من ينتسب إلى الإسلام ويدّعي أنه مسلم".

أما كلام البيروني، فمقارنات مبنية على المشابه الظاهرة التي يرجع كثير منها إلى المسلك الصوفي العام، والرجل لم يصرح بأن الهنود أصل لصوفية الإسلام، وليس في كلامه ما يدل على التطابق التام، ولا على وجود المسار التاريخي المؤثر في نشأة التصوف عند المسلمين. وأنا لا أدري ما العلاقة بين الزنادقة الأوائل الذين ذكرهم الأشعري والملطي وبين الصوفية؟ وهلا سأل الدكتور سفر الحوالي نفسه: ما العلاقة بين هؤلاء وبين عبد الواحد بن زيد تلميذ الحسن البصري؟ ما العلاقة بينهم وبين أبي سليمان الداراني، والحارث بن أسد المحاسبي، وبشر الحافي، وحمدون القصار، والجنيد بن محمد القواريري، وسهل بن عبد الله التستري؟ وهل كان تلميذا الأشعري الصوفيان القائمان على

خدمته بندار بن محمد الشيرازي ومحمد بن خفيف الشيرازي من أولئك النسّاك الذين حكى الأشعري مذاهبهم في الإباحة والحلول ووراثة "مزدك"؟!

وماذا عن الإمام الأشعري نفسه؟ وقد ترجم له تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١هـ) فحكى عن بعض أهل العلم أنه قال في الإمام: "كان الشيخ رضي الله عنه سيداً في التصوف واعتبار القلوب، كما كان سيداً في علم الكلام وأصناف العلوم"(١١١).

هؤلاء وتلاميذهم هم صوفية الإسلام. ولو كان الشيخ سفر الحوالي يريد أن يتعرف مواقف الشيوخ المتحققين من الزنادقة الذين دخلوا إلى ساحة التصوف الإسلامي وهو منهم بريء، وأن يتبين حقيقة الصوفية المسلمين، فليته تصفح فيما تصفحه، ونقل فيما نقله شيئاً من مؤلفات الحارث المحاسبي؛ مثل: كتاب **الرعاية لحقوق الله** ورسالة **المسترشدين والوصايا**، أو كلام أبي نصر السراج الطوسي في كتابه **اللمع**، أو كلام أبي بكر الكلاباذي في كتابه **التعرف لمذهب أهل التصوف**، أو كتاب أبي طالب المكي **قوت القلوب في معاملة المحبوب** و **وصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، وليته رجع إلى **الرسالة** للقشيري أو **عوارف المعارف** لأبي حفص السهروردي أو كتاب **آداب المريدين** لأبي النجيب السهروردي أو **الحكم** لابن عطاء الله السكندري أو **قواعد التصوف** للشيخ أحمد زروق أو غير ذلك من كتب الصوفية المعتبرة.

ولو رجع الحوالي ونظر بإنصاف في كتاب **اللمع** لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (ت ٣٧٨هـ)، الذي أشار في مقدمته إلى أن الدافع الرئيس في تأليفه إنما هو بيان حقيقة التصوف، لرفع الخلاف الظاهر بين المتعرضين لنقد التصوف والحكم عليه(١١٢)؛ فسيجد الباب الأخير من هذا الكتاب على قسمين: أولهما خصصه الشيخ الطوسي لبيان الشطحيات التي نسبت إلى شيوخ الصوفية وفُهمت على غير وجه الحق، وهو هنا مدافع عن القوم شارح لمقاصدهم، وكاشف عن دوافع خصومهم من أهل التلبيس؛ لكن هذا الدفاع لا يحول دون تتبع الغالطين وفضح المترسمين المنحرفين عن حقيقة التصوف التي جلاها للمنصف، وقرب بيانها بأدلتها للمنكر المعاند من أول كتابه. ومن ثم كان القسم

١١١- تاج الدين السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق الأستاذ عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، ط ٢، ١٩٩٢م، ٣٥١/٣.

١١٢- راجع السراج الطوسي: **اللمع**، تحقيق عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر، ومكتبة المثنى، بغداد، العراق، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص ٢١.

الثاني في بيان الأغاليط وكشف المنحرفين عن جادة الطريق، والطوسي هنا ناقد مدقق وخبير أمين نافذ البصر، يكشف الانحراف ويظهر أسباب السقوط في وهداته.

وفي هذا القسم الأخير يبدأ الطوسي ببيان الأسباب الداعية إلى سقوط المنحرفين، ويُرجعها جميعا إلى مخالفة الشريعة، والخروج عن آداب الصوفية. ثم يذكر أن الأسس التي بُني عليها التصوف الإسلامي ثلاثة: أولها: اجتناب المحارم كبيرها وصغيرها. والثاني: أداء جميع الفرائض عسيرها ويسيرها. والثالث: ترك الدنيا لأهل الدنيا قليلها وكثيرها؛ إلا ما لا بد للمؤمن منها. قال السراج الطوسي: "فكل من ادعى حالا من أحوال أهل الخصوص، وتوهم أنه سلك منزلا من منازل أهل الصفوة، ولم يبن أساسه على هذه الثلاثة، فإنه إلى الغلط أقرب منه إلى الإصابة في جميع ما يشير إليه أو يدعيه أو يترسم به. والعالم مقر والجاهل مدع"(١١٣).

وبعد ذلك يذكر السراج الطوسي أن الغالطين في ساحة الصوفية ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: من غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص، وقلة معرفتهم بذلك، وإنما حرموا الوصول لتضييع الأصول.

والطبقة الثانية: من غلطوا في الفروع، وهي الآداب والأخلاق، والمقامات والأحوال، والأفعال والأقوال؛ فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفس ومزاج الطبع.

والطبقة الثالثة: كان غلطهم فيما غلطوا فيه ذلة وهفوة، لا علة ولا جفوة؛ فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، فسدوا الخلل ولموا الشعث...، فعادوا إلى الأفعال الرضية والأحوال السنية(١١٤).

ويمكننا أن نقول: إن السراج الطوسي جعل الغالطين في الحقيقة على قسمين: الغالطين في الأصول، والغالطين في الفروع. والطبقة الثالثة إما أن تدخل في المخالفات الفرعية، وإما أن تهمل تماما في باب الغلط والانحراف؛ لأنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى الاستقامة ويذعنوا إلى الحق. وقد قال أبو نصر الطوسي في نهاية كلامه عن طبقات الغالطين: "فمن غلط في الأصول، فلا يسلم من الضلالة، ولا يرجى لدائه دواء إلا أن يشاء الله ذلك، والغلط في الفروع أقل آفة وإن كانت بعيدة عن الإصابة"(١١٥).

١١٣- المصدر السابق، ص ٥١٧.

١١٤- المصدر السابق، ص ٥١٨.

١١٥- المصدر السابق، ص ٥١٩.

والغلطات التي أخذها السراج الطوسي في الأصول على المترسمين بالتصوف أربع عشرة، ترجع في جملتها إلى أمرين اثنين: أولهما: الجهل بمعرفة الفرق بين القديم والمحدث وما يترتب على ذلك من عقائد، ويذكر هنا أن الإمام الجنيد بن محمد القواريري (ت ٢٩٧هـ) جعل معرفة هذا الفرق عين التوحيد(١١٦). وثانيهما: الجهل بأحكام الشرع أو التحلل منها.

ولقد قلت من قريب: إن أكثر ما انتقده خصوم الصوفية كانوا فيه عالة على مسيرة التصحيح والنقد الذاتي التي لم يتخلف نشاطها في تاريخ التصوف الإسلامي منذ نشأته. وأود أن ألفت النظر هنا إلى أن السراج الطوسي أرجع أكثر غلطات الغالطين في ساحة التصوف إلى الجهل بأحكام الدين في العقائد والعبادات والمعاملات، وهذا التقصير العلمي هو الذي بنى عليه الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧هـ) نقده للتصوف والصوفية في كتابه **تلبيس إبليس**(١١٧)، وقد كان ابن الجوزي ينقل عن الطوسي في مواضع كثيرة؛ لكنه عمم أحكامه وأخذ السابق بالخيرات والمقتصد بذنب الظالم لنفسه، وإن كان يفرق بين المتقدمين والمتأخرين الذين رأى أن الشيطان طمع فيهم أكثر من طمعه في أسلافهم إلى أن تمكن منهم غاية التمكن. وعلى منهجه في التهجم والتعميم سار الدكتور سفر عبد الرحمن الحوالي ورفاقه؛ لكنهم بلغوا في تهمة التصوف والجور على جميع الصوفية أبعد مما بلغه ابن الجوزي في القرن الهجري السادس.

وقد لخص الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ رحمه الله وغفر لنا وله ـ مآخذ ابن الجوزي على الصوفية فيما يلي:

١- أنهم انصرفوا عن العلم إلى العمل، وانصرفوا عن علم القرآن والحديث إلى المواعظ والخطرات.

٢- أنهم قالوا بالحول.

٣- أنهم تجاوزا الحدود في أمور العبادات، في الطهارة والصلاة.

٤- أنهم دعوا إلى الخروج عن الأموال والتجرد عنها.

٥- أنهم اتخذوا ملابس خاصة مثل: لبس الصوف ولبس الخرق والمرقعات.

٦- أنهم اتخذوا أوضاعا خاصة في الطعام.

٧- أنهم اصطنعوا السماع والرقص واستدعاء الوجد.

١١٦- راجع الهجويري: **كشف المحجوب**، ٥٢١/٢.

١١٧- راجع ابن الجوزي: **تلبيس إبليس**، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م، ص ٢٠٢.

٨- أنهم أولعوا بصحبة الأحداث والنظر إلى المرد.

٩- أنهم دعوا إلى التوكل وقطع الأسباب وترك الاحتراز في الأموال وترك التداوي.

١٠- أنهم آثروا الوحدة والعزلة والانفراد عن الناس، وفضلوا عدم الزواج على الزواج، ودعوا إلى ترك طلب الأولاد حين الزواج.

١١- أنهم دعوا إلى السياحة لا إلى مكان معروف ولا إلى طلب علم.

١٢- الشطح والدعاوى وادّعاء الكرامات والمخاريق والشعبذة(١١٨).

ولقد حاول الدكتور عبد الرحمن بدوي تقديم تفسير لهجوم ابن الجوزي على التصوف وأهله عامة، على أساس أن التصوف علم مستقل عن الفقه، وسلوك يتجاوز نطاق الظاهر والرسوم الظاهرة، وابن الجوزي من كبار المتشددين في السلفية والسنّية، ومن يتصور الإسلام على النحو الذي فعله ابن الجوزي من الطبيعي أن يرى في التصوف خروجا على السنة الدقيقة(١١٩).

وأنا أميل إلى تفسير موقف الحافظ ابن الجوزي بأن له تجربة مرة مع سلوك طريق الصوفية في صباه، كان من عواقبها انصرافه عن ذلك الطريق واشتغاله بغيره من العلوم الشرعية؛ فقد حاول بنفسه أن يسلك مسلك القوم في تهذيب النفس بالجوع، ولم يكن له شيخ يتدرج به ولا دليل سوى الاقتداء بما دوّنه الشيخ أبو طالب المكي في كتاب **قوت القلوب**؛ حيث حكى عن بعض الشيوخ أنه كان يزن قوته بكربة رطبة، ففي كل ليلة يذهب من رطوبتها قليل. والكربة واحدة الكرب وهي أصل سعفة النخل التي تصير مثل الكتف حين تيبس. قال ابن الجوزي عفا الله عنا وعنه: "وكنت أنا ممن اقتدى بقوله في الصبا، فضاق المعي وأوجب ذلك مرض سنين. أفترى هذا شيئاً تقتضيه الحكمة أو ندب إليه الشرع؟ وإنما مطية الآدمي قواه، فإذا سعى في تقليلها ضعف عن العبادة"(١٢٠).

١١٨- انظر عبد الرحمن بدوي: **تاريخ التصوف الإسلامي**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ٧٢، ٧٣.

١١٩- انظر: المصدر السابق، ص ٧٣، ٧٤.

١٢٠- ابن الجوزي: **صيد الخاطر**، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، وتخريج أحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٢٩. وقد تكلم السراج الطوسي على الغلط في ترك الطعام والعزلة ضمن بيانه للغلط في الفروع فقال في **اللمع**، ص ٥٢٧: "منهم طائفة عرفوا عن أهل الحق مخالفة النفوس؛ فتوهموا أن النفس إذا انكسرت بترك الطعام أمن شرها؛ فتركوا عاداتهم من الطعام والشراب، دون أن يكون لهم مشايخ يرشدونهم إلى آداب ذلك؛ فغلطوا. وقد كان المشايخ يأخذون تلاميذهم بالتدريج حتى لا يضعفوا عن العبادة".

وأيا ما كان الأمر فآية الإفادة بجهود الصوفية في تصحيح المسار تظهر عند مقارنة ما عرضه الصوفية من غلطات المترسمين وأهل الدعوى والانحراف، مع ما قدمه خصومهم من اعتراضات أو مناقص اتهموا به جملة الصوفية. ومما ذكره السراج الطوسي من الأغاليط في مجال الأصول أقدّم ما يلي:

١- **الغلط في الحرية والعبودية**: وأصحابه رأوا أن الحر أعلى مرتبة وأسنى درجة من العبد في أحوال الدنيا، فتوهموا أن الحرية أسمى عند الله من العبودية له، وأن الإنسان ما دام بينه وبين الله تعبد فهو مسمى بالعبودية، فإذا وصل إلى الله صار حراً وسقطت عنه العبودية، وهؤلاء هم الواصلون إلى سقر، والمتحللون من أحكام الشريعة[١٢١].

٢- **الغلط في الأنس والبسط**: وهو قريب في نتاجه من السابق، فقد توهم أصحابه أن بينهم وبين الله تعالى حالا من القرب والدنوّ، فأدّاهم ذلك إلى التخلي عن آداب كانوا يراعونها، وجاوزوا حدودا كانوا يحفظونها من قبل، وتوهموا أن ذلك من نتائج قربهم ودنوّهم.. قال الشيخ الطوسي: "وقد غلطوا في ذلك وهلكوا، لأن الآداب والأحوال والمقامات خلع من الله تعالى على عباده وكرامة لهم، وهم مستوجبون الزيادة إذا قصدوا في قصودهم، فمتى ما تركهم وخلاهم عن توفيقه وعنايته بهم حتى جاوزوا الحدود وخالفوا ما أمروا به، فقد نكصوا على أعقابهم...، كما حكي عن ذي النون المصري رحمه الله أنه قال: ينبغي للعارف أن لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، ولا تحمله كثرة الكرامة من الله تعالى على هتك أستار محارم الله تعالى"[١٢٢].

٣- **الغلط في عين الجمع**: وهو من أغلاط المتحللين من الشريعة أيضاً، وأصحابه لم يكفهم الخروج عن أحكام الشرع حتى أضافوا إلى ذلك حمل إجرامهم على الله عز وجل، "فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف إليهم، ولم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحركوا به، وظنوا أن ذلك منهم احتراز...، فأدّاهم ذلك إلى الخروج عن الملة وترك حدود الشريعة، لقولهم إنهم مجبرون على حركاتهم حتى أسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الاتباع...

١٢١- انظر السراج الطوسي: **اللمع**، ص ٥٣١.

١٢٢- المصدر السابق، ص ٥٥١.

وإنما غلط هؤلاء لقلة معرفتهم بالأصول والفروع، فلم يفرقوا بين الأصل والفرع ولم يعرفوا الجمع والتفرقة، فأضافوا إلى الأصل ما هو مضاف إلى الفرع، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضاف إلى التفرقة؛ فلم يحسنوا وضع الأشياء في مواضعها، فهلكوا"(١٢٣).

٤- **الغلط في الإخلاص:** وأصحابه فرقة من أهل العراق أساءت فهم الإخلاص على حقيقته التي يدركها أهل الفهم والمعرفة؛ فزعموا "أن الإخلاص لا يصح للعبد حتى يخرج عن رؤية الخلق، ولا يوافقهم في جميع ما يريد أن يعمله، كان حقا ذلك أو باطلا"(١٢٤). وأحسب أنه يلتحق بهؤلاء أهل ملامة الترك، على نحو ما سبق تفصيله من كلام الشيخ الهجويري.

٥- **الغلط في النبوة والولاية:** وأصحابه ضلوا في تفضيل الولاية على النبوة؛ لما توهموه من قصة موسى والخضر عليهما السلام من زيادة علم الخضر في العلم ببواطن الأمور، ومنهم من قال: إن الأنبياء يوحى إليهم بواسطة والأولياء يتلقفون عن الله تعالى بغير واسطة. قال الطوسي: فيقال لهم: غلطتم في ذلك لأن الأنبياء عليهم السلام هذا حالهم على الدوام، يعني الإلهام والمناجاة، والتلقف من الله عزوجل بلا واسطة، والأولياء وقتا دون وقت. وللأنبياء عليهم السلام الرسالة والنبوة، ووحي بنزول جبريل عليه السلام وليس للأولياء ذلك...، والولاية والصديقية منورة بأنوار النبوة، فلا تلحق بها أبداً، فكيف تفضل عليها؟!

أضفّ إلى ذلك أن الولي ينال من الكرامة بفضل حسن اتباعه لنبيّه صلى الله عليه وسلم فكيف يجوز تفضيل التابع على المتبوع، أو المقتدي على المقتدى به؟!(١٢٥).

٦- **غلط الحلولية:** وهي طائفة زعمت أن الحق تعالى ذكره اصطفى أجساما حل فيها بمعاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية، ومنشأ غلطهم وأصله الجهل بالفرق بين صفات الخالق والمخلوق. والشيخ يقرر أنه لا يعرف أحداً منهم، ولم يصح عنده شيء غير البلاغ، ثم يقول: "والذي غلط في الحلول، غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق؛ لأن الله تعالى لا يحل في القلوب وإنما يحل في القلوب الإيمان به والتصديق له والتوحيد والمعرفة. وهذه أوصاف مصنوعاته من جهة صنع الله بهم، لا هو بذاته أو صفاته يحل فيهم".

١٢٣- المصدر السابق، ص ٥٤٩.

١٢٤- المصدر السابق، ص ٥٣٣.

١٢٥- انظر: المصدر السابق، ص ٥٢٥ – ٥٢٧.

وفي تحفظ شديد يحكم الشيخ الطوسي على أهل هذه المقالة بالكفر والخروج من الملة، فيقول: "فمن صح عنه شيء من هذه المقالات، فهو ضال بإجماع الأمة، كافر يلزمه الكفر فيما أشار إليه"(١٢٦).

٧- **الغلط في الفناء:** وذكر الطوسي من أصحاب هذا الغلط قوما من البغداديين زعموا أنهم يدخلون في أوصاف الحق عز وجل عند فنائهم عن أوصافهم. والشيخ الطوسي يرى أنهم بذلك يضيفون أنفسهم إلى معنى يؤديهم إلى القول بالحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام.

والمعنى الصحيح عند أهل الحق لخروج العبد عن أوصافه ودخوله في أوصاف الحق هو "خروجه من إرادته ودخوله في إرادة الحق...، وذلك منزل من منازل التوحيد"(١٢٧).

وهكذا نرى شيوخ الصوفية لا يهادنون الغالطين المترسمين، حتى إنهم ليدمغونهم بوصف الكفر والخروج من زمرة المسلمين، إذا ثبت الغلط في الأصول عندهم. وقد تكلم الشيخ الطوسي مع ذلك عن الغلط في الحظر والإباحة، والغلط في فناء البشرية، وفي الرؤية بالقلوب، وفي الصفاء والطهارة، وفي الأنوار، وفي فقد الإحساس، وفي الروح.

وتكلم قبل ذلك عن أغاليط الفروع، فذكر الغلط في تفضيل الغنى عن الفقر، والغلط في التوسع وتركه، والغلط في فتور الإرادات والمجاهدات والسكن إلى الراحات، والغلط في ترك الطعام وفي العزلة والانفراد والاكتفاء بالمظاهر الجوفاء، وختم بذكر جماعة "ظنوا أن التصوف هو السماع والرقص، واتخاذ الدعوات...، على نحو ما رأوا من بعض الصادقين أو بلغهم ذلك عن المتحققين، وقد غلطوا في ذلك، لأن كل قلب ملوث بحب الدنيا... فسماعه ووجوده معلول وحركته وقيامه تكلف"(١٢٨).

وهكذا نجد أن الأغاليط التي ذكرها الشيخ الطوسي ممثلة للغلط في الفروع، لا تخرج عن كونها تنكبا لآداب الطريق الصوفي الحق، أو اكتفاء بمظاهر التصوف ورسومه دون تمثل لحقيقته وجوهره. والقارئ المنصف لما قدمه الطوسي ومن جاء بعده من شيوخ الصوفية المتحققين يجد أنهم طهروا ساحة التصوف الإسلامي من كل دخيل منكر في ظاهر الشريعة أصولا وفروعا، أو اعتقادا وسلوكا في العبادات والمعاملات.

١٢٦- المصدر السابق، ص ٥٤١، ٥٤٢.

١٢٧- المصدر السابق، ص ٥٥٢.

١٢٨- المصدر السابق، ص ٥٣٠.

لكن الدكتور سفر الحوالي حينما يتكلم عن الصوفية وأصلهم ومنهجهم عازف عن ذلك كله، مغرم بطبقات الشعراني وبما دُسَّ فيها وفي أمثالها من الأساطير والتخريفات التي لا تصدر عن ذي لبّ مستنير ولا يرتضيها ذو دين ولا يقبلها ذو عقل متبصر، ليوهم أنها المعبِّر الصادق عن دين الصوفية المخالف ـ عنده ـ لما عليه دين الإسلام، وأن التصوف منذ ظهر في تاريخ المسلمين لم يعرف سوى الدجل وأساطير المخرفين. وسواء دست هذه الحكايات الخرافية في كتب هؤلاء المشايخ المتأخرين، أو كانوا هم في الغلط والانحراف على ما دوِّن في كتبهم، فالحكم عليهم في أعيانهم لا يستتبع حكما عاما على التصوف وجملة الصوفية في كل تاريخ الإسلام.

وإذا عرفنا منهج الحوالي في النظر إلى التصوف بشكل عام، فلن نستغرب بعد ذلك موقفه من الملامية على وجه الخصوص.

والذي جر الدكتور الحوالي إلى الكلام عن الملامية أنه أراد أن يبين أن الصوفية لا يهتمون بعلوم الشريعة، وأن رجال الولاية عندهم على غير جبلة علماء التفسير والحديث والفقه.. قال: "هؤلاء الرجال مخالفون في سيرتهم وفي أحوالهم للشريعة ولمألوف الناس؛ فلا تتصور رجلا مقيما في مكان يدرس سنّة الرسول صلى الله عليه وسلم أو عالما من العلماء مشتغلا بالتفسير أو بالحديث أو بالسنة أو بالدعوة أو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالجهاد.

لا تتصور أن الصوفية يعتقدون أن هذا من رجال الغيب، لا ليس هذا أبداً. القضية: أن هذا الرجل ينبغي أن يكون كما يسمونه "بهلولا"، "مجذوبا"، يقع على المزابل يلتقط من القاذورات، ورأينا نماذج من هؤلاء في الحرم من أقذر الناس، شعورهم نافرة وأظافرهم طويلة، وهكذا نجد أشكالا غريبة جداً خارجة عن المألوف، ويقال: هؤلاء هم "الأولياء"، ربما يكون هذا هو "القطب الأعظم" الذي يدير الكون كله وأنت لا تدري...

وهنا خطورة كبرى ومطب كبير أفسدت به الصوفية دين المسلمين، بل أنا أقول: إن سرَّ التصوف يكمن تحت مثل هذه الأمور".

وهنا يذكر الدكتور الحوالي الملامية من الصوفية، ويقول: "هم فرقة الصوفية في المشرق، وهم من أوائل الزنادقة الذين أسَّسوا هذه الفكرة، وهي فكرة أن الأولياء مخالفون لظواهر الشرع، مخالفون لأحوال الناس، هؤلاء الملامية أو الملامتية"(١٢٩).

١٢٩- موقع سفر الحوالي:
http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.ShowContent&ContentID=680&FullContent=1

وكلام الحوالي هذا في جملته لو صدق وكان البهاليل هم الكاذبين في الدعوى، يذكرنا بما سبق تفصيله من كلام الشيخ الطوسي على من غلط من المترسمين في الإخلاص، وكلام الشيخ الهجويري في أهل ملامة الترك؛ فالصوفية ينكرون ذلك الغلط، وقد قال سيد الطائفة الجنيد بن محمد: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنَّة".

وروى الإمام القشيري عقب ذلك فقال: "أنبأنا محمد بن الحسين رحمه الله قال: سمعت أبا الحسين بن فارس يقول: سمعت أبا الحسين علي بن إبراهيم الحداد يقول: حضرت مجلس القاضي أبي العباس بن شريح، فتكلم في الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه، فلما رأى إعجابي قال: أتدري من أين هذا؟ قلت: يقول به القاضي. فقال: هذا ببركة مجالسة أبي القاسم الجنيد. وقيل للجنيد: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة. وأومأ إلى درجة في داره"(١٣٠).

وهذا يعني أنه لا تعارض بين تحصيل علوم الشريعة الظاهرة والبراعة في فنونها، وبين سلوك طريقة الزهد وطلب المكاشفة بمنن الرحمن وتجليات جوده على المنقطعين إليه.

ولو كان البُهْلُولُ هو الصادق في انجذابه إلى الحق بالحق، فذلك يذكرنا بما أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه"(١٣١). وبما أخرجه الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وكم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه. منهم البراء بن مالك". وقال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن من هذا الوجه(١٣٢). وكان الترمذي قد أخرج قبل ذلك حديث حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف متضعِّفٍ، لو أقسم على الله لأبرَّه. ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل جَوَّاظٍ متكبر". وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن

١٣٠- القشيري أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت ٤٦٥هـ): **الرسالة القشيرية**، ص ٧٢.

١٣١- **صحيح مسلم**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٢٨٥٤.

١٣٢- **سنن الترمذي**، ٥/٦٩٢.

صحيح[133]. وهذا الحديث الأخير متفق عليه مُخرَّج في صحيحي الإمامين البخاري ومسلم مكررا[134]. وهذا يعني أن المتصرف من رجال الله تعالى لا يتصرف حين يتصرف ـ في كلام أهل التحقيق ـ بذاته أو بتفويض؛ بل العبد الرباني يكون تصرفه بالله تعالى لله في مرضاته؛ وفق ما جاء فيما أخرجه البخاري في **صحيحه** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب. وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"[135].

لكن الحوالي ورفاقه لا ينظرون في جملة كلام الصوفية، بل يتلقطون منه بالهوى ما يشنعون به على التصوف وأهله، ومن ثم تجده حينما يتكلم عن الملامية لا ينشغل بدراسة مذهب الملامة في جملة كلام الصوفية، ولا فيما ترجمه سلوك المشايخ ومواقفهم من المنحرفين الغالطين؛ بل يتوجه إلى ما أنكروه ويقطع كلامهم عن سياقه ومساقه ليعبر به عما عابوه وليوجهه وجهة بعيدة عن مرادهم وليحمله من المعاني ما لم يكن من مقصودهم.

والحوالي يستمر في بيان فساد مذهب الملامية مضمنا كلامه ما يصطفيه مما أورده الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، ويضم إليه مثالا من طبقات الشعراني، وآخر يقتطعه من مساقه في كتاب **إحياء علوم الدين** للغزالي، فيقول: "إنهم رأوا التديُّن بشيء من العبادات في الظواهر شركا! والتزيُّن بشيء من الأحوال في الباطن ارتدادًا! يقولون: فيمن يظهر شيئاً من الطاعات ومن العبادات: هذا مشرك، ومن أسَّر في قلبه شيئاً من الأحوال، فهو أيضاً مرتدّ. ويقولون: إن كل عملٍ وطاعةٍ وقعت عليه رؤيتك، واستحسنته من نفسك فذلك باطل ...

١٣٣- السابق، ٧١٧/٤.

١٣٤- **صحيح الإمام البخاري**: كتاب التفسير، سورة ن والقلم، حديث رقم ٤٩١٨. وكرره في كتاب الأدب، باب الكبر، حديث رقم ٦٠٧١. وفي كتاب الأيمان والنذور، باب قوله تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُوْا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾ (الأنعام: ١٠٩)، حديث رقم ٦٦٥٧. وأخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٢٨٥٣.

١٣٥- **صحيح الإمام البخاري**: كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

أظهروا القبائح وأظهروا المعايب وأظهروا الشنائع؛ حتى إن منهم من كان يأتي الفاحشة في الدواب علانية أمام الناس، وهذا منقول وربما نتعرض له، ومنهم من دخل الحمام فسرق لباس أحد الناس ولبسه بحيث يرى وخرج في الشارع، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية، فلما رأوه أدركوه وضربوه وأخذوا الملابس. فقيل له في ذلك، فقال لهم: حتى أسقط من أعينهم وأبقى في عين الحق!! إلى آخر ما ينسجونه حولهم من الحكايات يصنعونها ـ كما يقولون ـ في تزكية النفس وتطهيرها.

طبيعي أن هذا مخالف لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "من سرَّته حسنتُه وساءته خطيئتُه فهو المؤمن"، والمؤمن لا يحب ولم يؤمر أن يظهر السيئات والقبائح؛ لكن القضية أكبر من قضية مخالفة هذا الحديث. إنها مخالفة للإسلام وهدم الإسلام...

أقول: رأى الزنادقة أن هذه هي أخطر وسيلة لهدم دين الإسلام، وإبعاد الأوامر والنواهي وإبطالهما، وإبطال الجهاد، وإبطال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واندثار أمر الإسلام بالكلية، والقصص في ذلك كثيرة"[١٣٦].

إن رغبتي في ترك الاشتغال بتفصيل دفع هذا الكلام وأمثاله هي التي دعتني إلى تقديم بيان كلام السراج الطوسي عن غلطات المترسمين الذين تبرأ منهم الصوفية، وإن بدا ذلك في موضعه استطراداً مقحماً، وأحسب أن ما سبق من بيان أنواع الملامة وأصول الملامتية في التصوف الإسلامي كاف في كشف تزييف الحوالي وتحويله لكلام الشيوخ وحكمه على الآراء والأعمال وفق الهوى. غير أنه قد وقفني استدلاله بعجز حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أخرجه الترمذي في **سننه**، وذلك أنه خطب الناس بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، فقال: "أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد. ألا لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة. من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[١٣٧].

من أين أخذ الدكتور سفر الحوالي أن أهل الملامة لا تسرهم حسناتهم ولا تسوؤهم سيئاتهم؟! وإنما تسر الحسنة بما يكون لصاحبها من الرضا والأجر عند الله، وتسوء السيئة بما يكون

١٣٦- موقع سفر الحوالي:
http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.ShowContent&ContentID=680&FullContent=1

١٣٧- **سنن الترمذي**، ٤/٤٦٥.

عليها من السخط والعقوبة عند الله. وصاحب ملامة القصد على ما هو عليه من حال البداية وتهذيب النفس المريضة، من أين عرف الحوالي أنه لا يفرح بالحسنة ولا تسوؤه السيئة؟! وهل علامة السرور بالحسنة عند الحوالي إعلانها وإظهارها، وإذا ساءته السيئة سترها وأخفاها؟! ولم لا يكون السرور بالحسنة مع إخفائها والغيرة عليها من اطلاع الخلق؟ ولقد نفى الملامتية أن يسرَّ المرء بنصيب نفسه من العمل وهو العجب. أما سرور العبد بما يكون له عند الله تعالى من الأجر والمثوبة فهذا مطلوب المؤمنين، وهو من أجلِّ ما يطلبه القوم في مجاهداتهم.

أما صاحب ملامة الترك على ما هو عليه من الانحراف وحال المذمة والطرد، إذا تعين ذلك الحكم في حقه وظهر تحلله من أحكام الشريعة؛ فذلك لا يعرف حسنة ولا سيئة أصلاً.

وعلى هذا فقول الحوالي: "ويقولون: إن كل عمل وطاعة وقعت عليه رؤيتك واستحسنته من نفسك فذلك باطل"، بعيد عما يعارض بهذا الحديث، لأن مقولة الملامية في نفي العجب وترك الركون إلى أحكام النفس الأمّارة، وفيها لفت السالك إلى استشعار التقصير، وطلب ما هو أكمل وأتم وأرجى للقبول عند الباري.

ولقد كنت أحسب أن الدكتور الحوالي ورفاقه لا يحسنون قراءة التراث الصوفي فحسب، فإذا هم لا يحسنون قراءة تراث شيوخهم في سلفيتهم الجديدة، وتراهم يستشهدون بكلام شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ) حين ينتقدون ملامية الصوفية، ويعلنون أنهم على الملامة غير المحمودة في الشريعة. والشيخ أبو العباس بن تيمية رحمه الله وغفر لنا وله كان موضوعيا أعدل منهم في نظرته إلى الصوفية عامة وإلى الملامية خاصة، بغض النظر عن موافقتنا أو مخالفتنا له في تفصيل آرائه؛ فما من أحد بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا يؤخذ من قوله ويردّ عليه.

وآية موضوعيته وعدالته في كلامه على التصوف والصوفية قوله في رسالة **الصوفية والفقراء**: "تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم وادّعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله؛ ففيهم السابق المقرَّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم"(١٣٨).

وحينما تكلم ابن تيمية عن نشأة التصوف وظهور الصوفية في تاريخ الإسلام، لم يزعم أن التشيع أصل التصوف، ولم يدّع أن التصوف ديانة قديمة هندية أو يونانية أدخلها الزنادقة في الإسلام باسم التصوف والتعبد والزهد، كما سبق فيما أوردته من كلام الدكتور سفر الحوالي؛ بل إن ابن تيمية لم يردّ منشأ التصوف إلى الكوفة، وإنما قال: "عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد. وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف؛ فقيل في أحدهم: صوفي. وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به؛ لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال. ثم "التصوف" عندهم له حقائق وأحوال معروفة، قد تكلّموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم: الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني وترك الدعاوى. وأشباه ذلك. وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصدِّيق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصدِّيقون، كما قال الله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيْقًا**﴾ (النساء: ٦٩). ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي؛ لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه؛ فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال: صديقو العلماء وصديقو الأمراء. فهو أخصُّ من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصدِّيقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم. فإذا قيل عن أولئك الزهّاد والعبّاد من البصريين: إنهم صديقون. فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضاً، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده"(١٣٩).

ليس من اللازم أن يكون المسلم صوفيا ولا متكلما لكي يقبل هذا العلم أو ذاك، أو لكي يقف منه موقفا موضوعيا حياديا. وليس لمن لم يعرف التصوف ولا الكلام أو عرف فيهما شذوذاً عما يراه حقا ودينا أن ينفي هذه العلوم من جملة علوم الإسلام. وقد أحسن ابن تيمية حينما قال عن طريقة الصوفية: "والصواب إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنّة، والإنكار لما فيها

١٣٨- ابن تيمية: **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، تحقيق وترتيب عبد الرحمن بن محمد قاسم بمساعدة ابنه محمد، نشر المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ١١/١٧، ١٨.

١٣٩- المصدر السابق، ١١/١٦، ١٧.

وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنّة"[١٤٠]. وهو بذلك يرفض طريقة من يقبل التصوف في جملته بلا فصل بين ما هو حق وما هو باطل، ويرفض أيضاً طريقة من ينكر جملة التصوف بلا تمييز بين الحق والباطل.

والسلفيون الجدد في إنكارهم للتصوف وتكفيرهم أو تفسيقهم لجملة الصوفية إما أنهم يغضون الطرف عن هذا الكلام، وكأن شيخهم لم يقله ولم يدونه في كتبه. وإما أنهم يتبجَّحون في الرد عليه ويُلقون بكلامه عرض الحائط؛ كما فعل الدكتور محمد جميل غازي الذي بدأ مقدمة تحقيقه لرسالة **الصوفية والفقراء** قائلا: "لا يا شيخ الإسلام". وختمها بقوله: "إن الصوفية هي الوبال القتَّال والدَّاء العضال الذي منيت به هذه الأمة، فرَّقت الجماعة وروَّجت البدعة وحاربت التوحيد وهاجمت السنة، وأشاعت الفوضى والجهل باسم العبادة والذكر والعهد والطريق، ولم يعد الطريق واحداً، بل أصبح طرائق قدداً، على رأس كل طريق شيخ يدعو إليه، ومريدون يتبعونه بل يؤلّهونه"[١٤١]. وهذا المذهب أصيل في جماعة "أنصار السنة المحمدية" عندنا بمصر منذ كان مؤسسها الشيخ محمد حامد الفقي الذي هاجم التصوف باعتباره ديانة وثنية تقوم على الشرك وتعدد الآلهة المتمثلة في أضرحة الموتى من الأولياء أو مشايخ الطرق من الأحياء، وتتلقى معارفها من الأوهام وتخييلات الشياطين والمنامات. ومن يقرأ تعليقاته على تحقيقه لكتاب **طبقات الحنابلة** لأبي الحسين محمد بن أبي يعلى (ت ٥٢١هـ)؛ يجد أمثلة كثيرة لهذا، حتى إنه ليقول في آخر صفحات الكتاب: "وهذه الطبقات تعطي صورة لما كان عليه تفكير الناس في هذا العصر الذي يعتبر من أول عصور الانحلال في المسلمين، بسبب ما غلب عليهم من التقليد والعصبية المذهبية، وما شاع فيهم من أوهام الصوفية؛ حتى كان من أبرز ما يعتمدون عليه المنامات والرؤى والأخبار التي يتلقفونها من أفواه العامة وأشباههم بدون تحقيق ولا تمحيص. ذلك أن رؤوسهم لم تكن بالقوة والاتزان الذي كان عند الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، ولا عند جهابذة المحققين من المتأخرين أمثال: شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيّم"[١٤٢].

وهكذا يكون التقدير لابن تيمية وابن قيّم الجوزية حين يغفل عن كلامهما في إنصاف التصوف والصوفية. وقد ورث عن الشيخ الفقي أتباعه وتلاميذه هذه النزعة؛ خاصة عبد الرحمن

١٤٠- المصدر السابق، ١٠/٨٢.

١٤١- محمد جميل غازي: **مقدمة تحقيقه لرسالة الصوفية والفقراء**، دار المدني، جدة، السعودية، ص٣، ٩.

١٤٢- الشيخ محمد حامد الفقي: **ختام تحقيقه لطبقات الحنابلة**، مطبعة السنّة المحمدية، القاهرة، ط ١، ١٣٧١هـ.

الوكيل الذي خلفه في رئاسة الجماعة، وهو الذي لم يكد يكتب إلا في مهاجمة التصوف والصوفية، وقد حقق بإيعاز من شيخه رسالتين لبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ): إحداهما في تكفير ابن عربي بعنوان **تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي**، والثانية عن ابن الفارض بعنوان **تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد**. وقد أخرج الشيخ الوكيل الرسالتين في كتاب واحد أسماه من عند نفسه **مصرع التصوف**، وأضاف إلى كلام البقاعي فيه جملة من العناوين ليوجهه نحو غايته هو نفسه ويجعله هجوما على التصوف كله والصوفية جميعاً. على حين أن البقاعي نفسه لم يكن إنكاره إلا على ابن عربي وابن الفارض ومن تبعهم من الصوفية الذاهبين ـ بحسب فهمه ـ إلى اعتقاد الاتحاد أو الوحدة. وقد كان مقدراً للتصوف ولشيوخ الصوفية الأوائل؛ فتراه يستشهد بأقوالهم ويذكرهم على أنهم طائفة من العلماء كأهل الحديث والفقهاء. وكان أيضاً يقدر الصوفية المتأخرين وينقل عن الشيخ علاء الدين البخاري الصوفي (ت ٨٣٤هـ) فيقول: "وممن كفَّر أهل هذا المذهب شيخ مشايخنا، نادرة زمانه، علاء الدين محمد بن محمد البخاري الحنفي، وصنّف فيهم رسالة سمّاها **فاضحة الملحدين وناصحة الموحّدين**، وبيّن أن وحدتهم الوحدة التي قرر أصلها بعض الفلاسفة، لا التي يسميها أهل الله الفناء"(١٤٣).

وقد قال البقاعي: "وإن قالوا: أنت تبغض الصوفية. فقل: هذه مباهتة. إنما أبغض من كفَّره من أجمعنا على أنهم صوفية؛ مثل: الجنيد، وسري، وأبي يزيد، وأبي سعيد الخراز، والأستاذ أبي القاسم القشيري، والشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ شهاب الدين عمر السهروردي صاحب **العوارف**. فإن بعضهم قال: طريقنا مشبك بالكتاب والسنّة؛ فمن خالفها فليس منّا..."(١٤٤).

ولقد حدد البقاعي موقفه من التصوف والصوفية في أوائل رسالة **تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد** فقال: "فإن المحققين منهم بنوا طريقهم على الاقتداء بالكتاب والسنّة...". ونقل جملة من كلام الشيوخ الدال على ذلك، ثم قال: "وإنما نقلت هذه النبذة الماضية من الشفاء؛ ليُعلم أن طريق الفقهاء هي طريق الصوفية. هذا ما بنى عليه الصوفية أمرهم"(١٤٥). ولما لم يجد الشيخ

١٤٣- برهان الدين البقاعي: **تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي** (ضمن كتاب **مصرع التصوف**)، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار التقوى، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٨٢، ولاحظ مهاجمة الوكيل لعلاء الدين البخاري.

١٤٤- برهان الدين البقاعي: **تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد** (ضمن كتاب **مصرع التصوف**)، ص ٢٦٠.

١٤٥- المصدر السابق، ص ٢٠٩ – ٢١٢.

الوكيل حيلة في توجيه هذا الكلام؛ فإنه كان مضطرا إلى مهاجمة البقاعي نفسه فوصف كلامه في التعليق عليه بأنه "دعوى كذوب"، وهذا إذا كانت عبارة الوكيل جارية على وصف الدعوى، وأما إن كانت على الإضافة، فالكذوب عنده هو البقاعي. فالعجب من مجيئه بكلام الشيخ البقاعي وتحقيقه ثم نشره بياناً لمصرع التصوف والصوفية، إذا كان الكلام عنده دعوى باطلةً عاريةً من الدليل، أو كان المتكلم نفسه كذوبا!!

لكن ما عسانا نصنع إذا كان هذا هو سلوك السلفيين الجدد، وكان هذا هو منهجهم في النظر إلى التصوف، وكانت هذه هي موضوعيتهم في محاكمة الصوفية(١٤٦).

وإذا رجعنا إلى بيان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من الملامية بين الصوفية المسلمين؛ فسنجده يقول: "والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل؛ بل ذلك يغريه بملازمة المحبة، كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه. فإن الملام على ذلك كثير. وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق وليس من المحمود الصبر على هذا الملام؛ بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. وبهذا يحصل الفرق بين "الملامية" الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين "الملامية" الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك"(١٤٧).

والملامية في كلام ابن تيمية هنا صنفان، وهما: أهل ملامة الاستقامة وأهل ملامة الترك، على ما سبق تفصيله من كلام الهجويري. والنوع الثالث الذي يمثله أهل ملامة القصد يشير إليه ابن تيمية في موضع آخر حينما يتكلم عن حكم "القلندرية"، فيقول: "قيل: أصل هذا الصنف أنهم كانوا قوما من نسَّاك الفرس يدورون على ما فيه راحة قلوبهم، بعد أداء الفرائض واجتناب المحرَّمات. هكذا فسّرهم الشيخ أبو حفص السهروردي في عوارفه، ثم إنهم بعد ذلك تركوا الواجبات وفعلوا المحرَّمات؛ بمنزلة "الملامية" الذين كانوا يخفون حسناتهم ويظهرون ما لا يظن بصاحبه الصلاح من زي الأغنياء ولبس العمامة فهذا قريب، وصاحبه مأجور على نيته. ثم حدث قوم فدخلوا في أمور مكروهة في

١٤٦- سبق أن دونت نصوص شيوخ جماعة أنصار السنّة المحمدية، مع ملاحظاتي عليها في ورقة بحث بعنوان **اتجاهات نقد التصوف عند المسلمين**، وقد قدمتها في حلقة بحث علمي أدارها أستاذي الدكتور أبو اليزيد العجمي بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، باكستان ١٩٩٣م.

١٤٧- ابن تيمية: **مجموع الفتاوى**، ٦١/١٠.

الشريعة، ثم زاد الأمر ففعل قوم المحرمات من الفواحش والمنكرات وترك الفرائض والواجبات، وزعموا أن ذلك دخول منهم في "الملاميات"، ولقد صدقوا في استحقاقهم اللوم والذم والعقاب من الله في الدنيا والآخرة"[148].

وإني لا أجد أن كلام ابن تيمية عن الملامية يعارض ما فصَّله شيوخ الصوفية في شيء، فيما مدحوه وفيما ذمّوه من أنواع الملامة، وصاحب ملامة القصد هنا مأجور على قدر نيته فيما يستره من الحسنات، وفيما يظهره مما لا يظن بصاحبه الصلاح؛ بشرط ترك ارتكاب المكروهات والمحرمات في الشريعة. وصاحب ملامة الترك المقتحم ساحة ارتكاب الفواحش والمنكرات وترك الفرائض والواجبات؛ مذموم على ألسنة أهل الحق جميعاً، مطرود من رحمة الله تعالى باتفاق أهل الدين والعلم بالشرائع.

إن الشيخ ابن تيمية يسلم في النوايا لله العالم بها والمثيب على قدرها بما يتفضل به من آيات الإنعام، وهؤلاء السلفيون الجدد يدَّعون الألوهية ـ لو وعوا ـ في محاكمتهم لنوايا الخلق، وفي قولهم إن القوم يقصدون هدم الإسلام وإبطال الأمر والنهي وإن أظهروا الزهد والفقر والعبادة؛ فهذا الظاهر قد علمناه وأدركناه؛ فما بال المقاصد والنوايا؟!

فهلا شارك السلفيون الجدد من الوهابييّن وجماعة أنصار السنة المحمدية شيخهم في قبول الحق من هذا المسلك، وفي الكلام على ما هو باطل ليس له أصل في الشريعة المحمدية! إنهم لا يتركون مساحة للمناقشة فيما هو حق ظاهر وبيّن، ولا فيما يشتبه فيه وجه الحق مما يلزم التوقف فيه حتى إذا استبان وظهر على وجهه ألحق بحكمه من القبول أو الرفض.

ولقد سبق فيما أوردته من كلام الشيخ محمد حامد الفقي ما يدل على اعتداده بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وهكذا كل السلفيين الجدد يُظهرون الاعتداد بهما والانتماء إلى منهاجهما. وقد مضى بيان موقف ابن تيمية، وأودّ أن أختم هذا العمل ببيان موقف تلميذه ابن القيم ليظهر أن هؤلاء ليس لهم في شيوخهم سلف؛ بله أن يكون لهم في منهاجهم الجديد في الكلام عن التصوف والصوفية قدوة من منهاج سلف الأمة الأوائل من خير قرون الاتباع والبر في طلب الحق والبراءة من الباطل. وأعجب من هذا تمسُّكهم بما شذ فيه الشيخ ابن تيمية وتلميذه عن جمهور العقلاء من المسلمين وأهل الأديان؛ مثل: القول بتسلسل الحوادث بلا أول، وتجويز حلول الحوادث بذات الله تعالى مع الحكم بقدمه ووجوب وجوده، وتفسير معاني الصفات الخبرية المتشابهة المضافة

١٤٨- ابن تيمية: **مجموع الفتاوى**، ١٦٣/٣٥، ١٦٤.

إلى الله تعالى مع زعم أن التفويض في الكيف لا في ظاهر المعنى، والقول بفناء النار بمن فيها من المخلدين في العذاب أبداً. فكأنهم لا يتبعون إلا الشذوذ حيث كان!!

وأيّا ما كان الأمر، فابن القيم له كلمة عن فعل الشيطان بالمقصرين من بني آدم في كتابه **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، يذكر فيها من أحوال الملامتية ما يقابل حال المرائين، فيقول: "وقصر بقوم حتى تزيّنوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه. وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم وسموا أنفسهم الملامتية"(١٤٩).

وقد تقدم أن هذا نوع من الملامة وليس مذهب جميع الملامية. ولابن القيم كلام أكثر تفصيلاً في كتاب **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، في شرح كلام شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (ت ٤٨١هـ) في باب السر من قسم الولايات.

قال أبو إسماعيل رحمه الله: "قال الله عز وجل: ﴿**اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِـمَا فِيْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ (هود: ٣١). أصحاب السرّ هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر"(١٥٠).

وفي الكلام عن الآية ردها ابن القيم إلى مقامها في سورة هود؛ حيث بيان مجادلة قوم نوح لرسولهم عليه السلام: ﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِيْنَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِيْنَ**﴾. فكان من جوابه: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِيْ مِنَ اللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ وَلاَ أَقُوْلُ لَكُمْ عِنْدِيْ خَزَآئِنُ اللّٰهِ وَلآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلآ أَقُوْلُ إِنِّيْ مَلَكٌ وَلآ أَقُوْلُ لِلَّذِيْنَ تَزْدَرِيْ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْرًا اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِـمَا فِيْ أَنْفُسِهِمْ إِنِّيْ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِيْنَ**﴾ (هود: ٢٧، ٣٠، ٣١). قال ابن قيم الجوزية: "أما استشهاده بالآية؛ فوجهه أن أتباع الرسل الذين صدقوهم وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم، قد أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته والإيمان به خفي على أعداء الرسل، فنظروا إلى ظواهرهم وعموا عن بواطنهم؛ فازدروهم واحتقروهم ...

١٤٩- ابن القيم: **إغاثة اللهفان**، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ١/١١٨.

١٥٠- الهروي: **منازل السائرين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٠٥.

والذي يظهر من الآية أن الله يعلم ما في أنفسهم؛ إذ أهلهم لقبول دينه وتوحيده وتصديق رسله، والله سبحانه وتعالى عليم حكيم يضع العطاء في مواضعه...؛ فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدى والحق، وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعلم بمن يؤهله لذلك؛ لسرّ عنده من معرفة قدر النعمة ورؤيتها من مجرد فضل المنعم ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السرّ فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء"(١٥١).

أما الخبر الذي أشار إليه الشيخ الهروي؛ فإن ابن القيم يرى أن المراد به قد يكون أحد ثلاثة أحاديث ثابتة في الصحيح. أولها: ما أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه** بإسناده عن عامر بن سعد قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شرّ هذا الراكب. فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال: اسكت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يحب العبد التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ"(١٥٢).

والحديث الثاني: ما أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبَّره"(١٥٣).

والحديث الثالث: ما أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه** من حديث سهل بن سعد الساعدي أنه قال مرّ رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس: "ما رأيك في هذا؟" فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفَّع أن يشفع. قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مرّ رجل آخر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما رأيك في هذا؟" فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفَّع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"(١٥٤).

١٥١- ابن القيم: **مدارج السالكين**، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ج ٣، ص١٧٠، ١٧١.

١٥٢- **صحيح مسلم**: كتاب الزهد والرقائق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، حديث رقم ٢٩٦٥.

١٥٣- السابق: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٢٨٥٤.

١٥٤- أخرجه البخاري في **صحيحه** مكررا: كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، وكان قد أخرجه أيضاً في كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين.

قال أبو إسماعيل الهروي: "أصحاب السر هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر، وهم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طائفة علت هممهم وصفت قصودهم وصح سلوكهم، ولم يوقف لهم على رسم ولم ينسبوا إلى اسم ولم تشر إليهم الأصابع؛ أولئك ذخائر الله تعالى حيث كانوا.

والطبقة الثانية: طائفة أشاروا عن منزل وهم في غيره، وورُّوا بأمر وهم لغيره، ونادوا على شأن وهم على غيره، فهم بين غيرة عليهم تسترهم، وأدب فيهم يصونهم، وظرف يهذبهم.

والطبقة الثالثة: طائفة أسرهم الحق عنهم فألاح لهم لائحا أذهلهم عن إدراك ما هم فيه، وهيمهم عن شهود ما هم له، وضنَّ بحالهم على علمهم معرفة ما هم به؛ فاستسرُّوا عنهم مع شواهد تشهد لهم بصحة مقامهم من قصد صادق، يهيجه غيب وحب صادق يخفى عليهم علمه، ووجد غريب لا ينكشف لهم موقده، وهذا من أرق مقامات أهل الولاية"(١٥٥).

ولقد جرت العادة في ترتيب المقامات والأحوال على البدء بالأدنى ثم يتدرج منه إلى الأعلى، وحال الفناء عند صاحب المنازل غاية، وقد أخذ عليه ذلك ابن القيم في هذا الموضع وفي غيره، فبين أن حال التمكن عند أهل التحقيق أقوى وأعلى، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في كلام الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي، وقد يُفاجأ بعض السلفيين الجدد بأن هذا هو عين ما ذهب إليه عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت ٦٩٠هـ) في شرحه على **منازل السائرين** أيضاً؛ فقد قال في آخر كلامه على أهل الطبقة الثالثة: "إن هذا المقام ضعيف عند هذه الطائفة، والذي ذكر الشيخ في الطبقة الثانية أعلى مقاما منه، وكان الواجب أن يقدم هذا على ذاك، كما عادته أن يقدم الناقص ثم يختم بالكامل. ويجوز أن توجد هذه الصفات المذكورة في هذه الطبقة الأخيرة بأدنى بارقة من الشهود؛ فيكون هؤلاء ضعفاء بالمرة. وأعظم القوم من يثبت للتحقيق، وفيهم أقول من جملة أبيات لي:

إني امرؤ من عصابة كرمت   أذهب في الحب حيثما ذهبوا
سُقُوا فلم يسكروا وكم فئة   أسكرهم عطرها وما شربوا"(١٥٦).

١٥٥- الهروي: **منازل السائرين**، ص ١٠٥، ١٠٦.

١٥٦- العفيف التلمساني: **شرح منازل السائرين**، نشر عبد الحفيظ منصور بمركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس، مطبع أمير، قم، إيران، ط ١، ١٤١٣هـ، ص ٤٧٨، ٤٧٩. والبيتان من بحر المنسرح.

وأهل الطبقتين: الأولى والثانية من أصحاب السر يعدون في الحقيقة من أهل الملامة، وكأن الشيخ الهروي في بيان الطبقة الأولى تكلم عن صفاتهم في أحوالهم مع الحق وترك الانشغال بالخلق، وعن عدم مراعاة الخلق لهم، وتكلم في بيان الطبقة الثانية عن شؤون معاملاتهم مع الخلق في حفظ أحوالهم مع الله؛ لكن الشيخ ابن القيم قد أخر ذكر الملامتية إلى شرح كلام الهروي في الطبقة الثانية، ولعله قد فعل ذلك لاحتمالها التفصيل بذكر الملامة المحمودة والملامة المذمومة في التعامل مع الخلق.

وابن القيم يقول في وصف الملامتية: "يظهرون ما لا يمدحون عليه ويسرون ما يحمدهم الله عليه؛ عكس المرائين المنافقين. وهؤلاء طائفة معروفة لهم طريقة معروفة تسمى طريقة أهل الملامة، وهم الطائفة الملامتية يزعمون أنهم يحتملون ملام الناس لهم على ما يظهرونه من الأعمال؛ ليخلص لهم ما يبطنونه من الأحوال، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِيْ اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لآئِمٍ**﴾ (المائدة: ٥٤). فهم عاملون على إسقاط جاههم ومنزلتهم في قلوب الناس؛ لما رأوا المغترين المغتر بهم من المنتسبين إلى السلوك يعملون على تزكية نفوسهم، وتوفير جاههم في قلوب الناس؛ فعاكسهم هؤلاء وأظهروا بطالة وأبطنوا أعمالاً وكتموا أحوالهم جهدهم ...

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: حدثنا سفيان، عن منصور، عن هلال سياق ابن يساف قال: كان عيسى عليه السلام يقول: "إذا كان يوم صوم أحدكم؛ فليدهن لحيته ويمسح شفتيه؛ حتى يخرج إلى الناس فيقولون ليس بصائم". ولهذا قال بعضهم: التصوف ترك الدعاوي وكتمان المعاني"(١٥٧).

فهذا وصف ابن القيم للملامتية، وهذا بيانه لما بنوا عليه مذهبهم في الملامة. أما بيان أحكامهم عنده فيظهر في قوله: "وهذا يحمد في حال ويذم في حال، ويحسن من رجل ويقبح من آخر؛ فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره، ولا نقص عليه فيه ولا ذم من الله ورسوله؛ ليكتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة، وأظهر الصحة وكتم المرض، وأظهر النعمة وكتم البلية؛ فهذا كله من كنوز الستر، وله في القلب تأثير عجيب يعرفه من ذاقه. وشكى رجل إلى الأحنف بن قيس شكاة، فقال: يا ابن أخي قد ذهب ضوء بصري من عشرين سنة؛ فما أخبرت به أحداً.

وأما الحال التي يذم فيها فأن يظهر مالا يجوز إظهاره؛ ليسيء به الناس الظنَّ فلا يعظموه، كما يذكر عن بعضهم أنه دخل الحمام، ثم خرج وسرق ثياب رجل ومشى رويداً؛ حتى أدركوه

١٥٧- ابن القيم: **مدارج السالكين**، ١٧٧/٣، ١٧٨.

فأخذوها منه وسبّوه. فهذا حرام لا يحل تعاطيه، ويقبح أيضاً من المتبوع المقتدى به ذلك؛ بل وما هو دونه لأنه يغر الناس ويوقعهم في التأسي بما يظهره من سوء.

فالملامتية نوعان: ممدوحون أبرار ومذمومون جهال وإن كانوا في خفارة صدقهم.

فالأولون الذين لا يبالون بلوم اللوّم في ذات الله والقيام بأمره والدعوة إليه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿**يُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لآئِمٍ**﴾. فأحب الناس إلى الله من لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تأخذه في الله لومة لائم.

والنوع الثاني المذموم هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعا من محرم أو مكروه؛ ليكتم بذلك حاله، وقد قال النبي: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه"(١٥٨).

وفي هذا الذي انتهى إليه ابن قيم الجوزية كثير موافقة لما سبق بيانه من كلام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وقليل المخالفة يرجع لاختلاف مشرب الشيخين، ومن ثم عذر الغزالي في بعض ما لم يعذر فيه ابن القيم. وأيّاً ما كان الأمر؛ فأين هذا كله مما انتهى إليه الدكتور سفر الحوالي حينما زعم أن الملامية هم أوائل الزنادقة الذين أسَّسوا فكرة مخالفة الأولياء لظواهر الشرع، ومخالفتهم لأحوال الناس، وأنهم إنما اتخذوا ذلك وسيلة لهدم دين الإسلام، وإبطال الأوامر والنواهي، وإبطال الجهاد، وإبطال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واندثار أمر الإسلام بالكلية؟!

وهل لهذه الدعوى الكذوب سلف في كلام الشيخين: ابن تيمية وتلميذه ابن قيِّم الجوزية؟ فيا ليت شعري من يكون بحق سلف أولئك السلفيين الجدد؟!

نسأل الله السلامةَ في الدارين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله.

* * * *

١٥٨- المصدر السابق، ١٧٨/٣، ١٧٩. والحديث أخرجه الإمام الترمذي في **جامعه**، ٥٢٢/٤. بإسناده عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه". قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: "يتعرَّض من البلاء لما لا يطيق". وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.